بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

**أما بعد؛**

فإن (لا إله إلا الله) كلمة عظيمة المعنى جميلة المبنى، فهي كلمة التوحيد والإخلاص والتقوى والباقية، وكثرة الأسماء الثبوتية تدل على كمالها وعلو منزلتها.

فبها يدخل العبد في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله**» متفق عليه.

وهي أفضل الذكر لدلالتها على حق الله عز وجل بجميع أنواع الدلالات، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله**» أخرجه الترمذي.

وهي أعظم حسنة لما أخرج الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلص رجل من أمتي على رؤوس الخلائق ...**»، وذكر الحديث، وفيه: «**فتطيش بهن لا إله إلا الله، ولا يثقل مع اسم الله شيء**».

ودراسة مثل هذه الكلمة لفظًا ومعنًى ومعرفة ما يتعلق بشروطها

وأركانها من الأمور اللازمة والعلوم المتحتمة إذ أن مدار فساد وصلاح الدنيا والآخرة على صلاح هذه الكلمة، قال -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد اطلعت على رسالة «اقتطاف الثمار الدانية في شرح شروط الكلمة الباقية» لأخينا الكاتب أبي عبد الله رشيد بن مصطفى البربري المغربي، فرأيتها رسالة لطيفة ومفيدة، جمع فيها ما يحتاج إليه، فالله أسأل أن ينفع به وبرسالته، والحمد لله.

**عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري**

**٢٩ جمادى الأول ١٤٣٨ هـ**

**مكة حرسها الله**

# كلمة شكر

انطلاقًا مما أخرجه الإمام أبو داود في «سننه»؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»، أسأل الله عز وجل أن يجزي أخانا الشيخ أبا محمدٍ عبد الحميد الحجوري على ما بذل من وقته ونصحه في مراجعة هذا الكتاب.

كما أسأل الله عز وجل أن يجزي أخانا أبا عمران حسنًا على نصرته وحبه لهذه الدعوة الطيبة المباركة، وأشكره أيضًا على تشجيعه هو وولده -إبراهيم- على طبع هذا الكتاب.

ولا أنسى كذلك أن أشكر معينتي على الدعوة -أهلي- على ما بذلت من جهد -ولا تزال- في كتابة مؤلفاتي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، الأحد الذي جعل التوحيد، وتحقيقه، وتأسيس العمل عليه، غاية وجود العبد في هذه الحياة الدنيا، حيث قال -عز من قائل-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]. فشرح صدور من أخلصه من عباده للاهتمام بمعرفة معبودهم، وتوحيده، معرفة تنجيهم من ربقة الشرك، وتدخلهم الجنة. العليم بأحوال عباده، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور. الحكيم في توفيق من في قلبه خير من عباده لتعليم توحيده، والاستمرار عليه طول حياتهم إلى الممات. المحب لعباده المتمسكين بدينهم، القابضين عليه، وإن صار القابض عليه كالقابض على الجمرة.

والصلاة والسلام على إمام الموحدين، قدوة الداعين إلى كلمة التوحيد على علم وبصيرة، كما أمره ربه بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وبين تبارك وتعالى أنه ﷺ قام بهذا الشرف العظيم أتم القيام؛ حيث قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

بعثه الله بين يدي الساعة شرطًا من أشراطها، حيث قال ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين**». الصادق في أقواله، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، والمخلص في أفعاله؛ فكان قدوة لنا في امتثال

أمر ربه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر]. حتى صار الاقتداء به الميزان الحق بين من يحب الله وبين من يزعم ذلك ولا يقيم على دعواه البينة التي ذكرها الله في قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].

أما بعد، فأحمد الله أن شرح صدري لجمع ما تيسر لي في شرح هذه الشروط لكلمة الإخلاص.

ولما كانت الأشياء النفيسة محروسة، محفوظة بأبواب لا يفتحها إلا من له مفاتيحها، جعل الله أنفس الأشياء كذلك. فجعل سبحانه وتعالى مفتاح الجنة لا إله إلا الله، لا يدخلها أحد إلا به.

ولما كانت الجنة بهذه المثابة -جعل الله لمفتاحها شروطًا لا يجمعها إلا من جَدَّ في السعي لدخولها. فالنفيس كلٌ يطمع فيه، لكن لا يناله إلا من بذل أنفس ما عنده في نيله.

وأول ما يسعى فيه الإنسان من ذلك هو العلم بكلمة الإخلاص، علمًا يتحقق به أنه لا هدف لوجوده في الدنيا إلا العمل بهذه الكلمة. ومن هنا يبدأ منطلقه في سيره إلى ربه على مركب اليقين. فعلى هذا المركب يسعى العبد للقاء ربه؛ حيث لا يُبْقِي يقينُه في قلبه شبهةً أن الجنة جزاء سعيه، بعد غَمْد الله إياه برحمته في دخولها. ولما صفى قلب هذا العبد مما يشوبه من الشبه، اضمحلت رغبته في غير مولاه سبحانه وتعالى، فلا يعمل عملًا إلا وقصده به الخالق دون من سواه.

فهذا العبد في سيره إلى ربه على علم، وفي سعيه أنه يفضي به إلى

النجاة على يقين، وفي أعماله التي يتقرب بها إلى هدفه على إخلاص. ولنيل هذا المرام يُفْرِغ جهده وطاقته؛ فهو صادق في أفعاله وأقواله. لا يكذب على نفسه؛ فيتمنى على الله الأماني وهو قاعد على فراشه، محبوس في حبال هوى نفسه. بل هو قابل لشريعة ربه حيث توجهه، منقاد لما يأمره به مولاه، مقدم ذلك على هوى نفسه. بل قد نبذ الهوى وراء ظهره، فهو عبد خلَّص نفسَه -بتوفيق الله- من ربقة الشرك والهوى، فهو عبد لله وبالله، محب للقائه.

ومعرفة شروط هذه الكلمة، والقراءة في شروحها، وما يتعلق بها، من أهم ما يجب على العبد أن ينفق فيه ساعاته، حتى يصير من المعتنين بمفتاحه للجنة؛ فيفتح بابها ويدخلها بسلام.

**ثم أقول مستعينا بالله:** إن الواجب على العبد أن يلي لكلمة الإخلاص، وما يتعلق بها من العلوم، عناية تامة، ليتفقه في توحيد ربه، وينال بسببه السعادة في الدنيا، والنجاة من العذاب يوم القيامة، والفوز بالنعيم المقيم. وإذا حقق العبد هذه العناية صار من الممتثلين لما أوجب الله على عباده بقوله: ﴿فَٱعلَم أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّه﴾ [محمد: ١٩].

ومن العلم بهذه الكلمة العلم بشروطها التي وفق الله الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب لجمعها.

وهذه الشروط معلومة منذ الزمن الأول؛ فلم يخترع هذا الإمام شيئًا من العلم لم يكن معروفا في عهد النبي ﷺ. وإنما غاية ما فعله أن جمع ما كان موجودًا في الكتاب والسُّنة، مُفَرَّقًا في مواضع مختلفة، معروفًا

لدى النبي ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم. فلم يأت، في جمعه لهذه الشروط، ببدع من القول. وإنما يسر على المسلمين ما يجب عليهم تعليمه مُحَلِّيًا ذلك بأدلة من الكتاب والسُّنة، كما سيتضح ذلك قريبًا، إن شاء الله.

وقبل الشروع في صلب الموضوع، أرى أن أذكر تنبيهين متعلِّقَيْنِ بعنوان الرسالة؛ أولهما: بيان المراد بالشرط في كلام المصنف هنا.

فأقول: الشرط لغةً، العلم والعلامة. قال ابن فارس في «مقاييس اللغة»، مادة (شرط): أصل يدل على علم وعلامة وما قارب ذلك من علم. من ذلك الشرط العلامة. وأشراط الساعة: علاماتها. انتهى المراد.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، أي؛ علاماتها. ومن علاماتها أيضًا، نزول عيسى عليه السلام، وبه جاءت قراءة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، بفتح العين. وفيها قال ابن كثير في تفسيره: أي؛ أمارة ودليل على وقوع الساعة. انتهى.

وتعريف الشرط في اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده لا الوجود ولا العدم لذاته. قال الإمام الشوكاني في «الإرشاد» (ص ٢٥): وحقيقة الشرط هو ما كان عدمه يستلزم عدم الحكم؛ فهو وصف ظاهر منضبط يستلزم ذلك، أو يستلزم عدم السبب لحكمة في عدمه تنافي حكمة الحكم أو السبب. انتهى. فشرط الشيء وصف يتوقف وجود حقيقة ذلك الشيء عليه، بغض النظر إلى كون

الوصف داخل المشروط أم لا.

ومما يدل على أن مراد المصنف بالشرط ما ذكرنا، أنه يجعل من الشروط بعض الأوصاف لقائل هذه الكلمة حال كونه متلفظًا بها، لا قبل التلفظ بها. من ذلك أنه ذكر في الشرط الثاني لهذه الكلمة: اليقين، واستدل له بقوله ﷺ: «**من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُسْتَيقنًا بها من قلبه فبشره بالجنة**». فقوله ﷺ: «مُسْتَيْقِنًا» حال لمن شهد أن لا إله إلا الله. والحال، كما هو مقرر في كتب اللغة، وصف يقارن الفعل، وهو في الحديث المذكور: الشهادة. ففهم أن شرط اليقين المذكور في هذا الحديث مقارن للشهادة، لا قبلها.

فالمراد بالشرط هنا خلاف ما يقيده به المتكلون من لزوم كونه خارج المشروط! نقل هذا التقييد عنهم الشوكاني في المصدر السابق (ص ٣٠٧) قائلًا: والشرط في اصطلاح المتكلمين ما يتوقف عليه المشروط ولا يكون داخلًا في المشروط. . . انتهى المراد.

وكما أن العبادة لا تصح إلا بتوفر سائر شروطها، فكذلك كلمة الإخلاص لا تصح إلا بتوفر جميع شروطها. فإذن، يلزم على العبد تعلم هذه الشروط ليصحح توحيده.

**وقد نظم هذه الشروط بعضهم تسهيلًا لحفظها فقال:**

**عِلْمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصِدْقُك مَعْ محبةٍ وانقيادٍ والقَبُولِ لها**

**وثاني التنبيهين:** أن لهذه الكلمة عدة أسماء منها: كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص. . . وتسمى أيضًا، بما ذكرنا في عنوان هذا الشرح:

الكلمة الباقية. ووجه ذلك حيث جعلها إبراهيم عليه السلام، لما ذهب إلى ربه، باقيةً في عقبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف]. فقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ معناه: لا إله، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ معناه: إلا الله، فدل هذا على أن كلمة التوحيد تسمى الكلمة الباقية.

وقد وردت تسميتها بالكلمة الطيبة، وذلك ما أخرجه الإمام الطبري في تفسير سورة إبراهيم، الآية: ٢٤. فقال -رحمه الله-: حدثني المثنى، قال: ثنا عبد الله ابن صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ : شهادةُ أن لا إله إلا الله. . . الأثر. لكن هذا الأثر لا يثبت، وإن كان معناه صحيحًا.

ويذكر في هذا الباب أيضا، تسمية الشهادة بالقول الثابت، أخرج الشيخان عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾** [إبراهيم: ٢٧]».

* * *

# الشرط الأول: العلم

**دليل العلم:** قوله تعالى: ﴿فَٱعلَم أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

**وقوله:** ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [الزخرف]، أي بلا إله إلا الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم. . .

**ومن السُّنة:** الحديث الثابت في الصحيح عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**». (أخرجه مسلم، ٢٦).

---

**قوله:** (**العلم**) المراد بالعلم إذا أُطلق: العلم النافع، الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة. قال الإمام ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٧٧): والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء به الرسول. انتهى. وقال -رَحِمَهُ اللَّهُ-، كما في «فوائد الفوائد» (ص ٢٠٢): فالكتب كثيرة جدًّا، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزلٍ عن أكثرها؛ وهو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه؛ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٦١]. انتهى. ولهذا قال في «المدارج» (٢/ ٣٧٦-٣٧٨): ومن أحالك على غير «أخْبَرَنا» و«حدَّثنا» فقد أحالك: إما على خيالٍ صوفي، أو قياسٍ فلسفيّ، أو رأي نفسي. فليس بعد «القرآن» و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شُبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين. ومن فارق الدليل، ضلّ عن سواء السبيل. ولا دليل إلى الله والجنة، سوى

الكتاب والسُّنة. وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسُّنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم. . .

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغَيِّ والرشاد، والهُدَى والضلال. به يُعرَف الله ويُعبد، ويذكر ويوحد، ويُحمد ويُمجد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون. به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمُحَدِّث في الخلوة، والأنيس في الوَحْشَة، والكاشف عن الشُّبهة، والغِنَي الذي لا فقر على من ظفر بكنزه. والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه. مذاكرتُه تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قُرْبة. وبَذْلُه صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

**قال الإمام أحمد** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب. لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه. انتهى باختصار.

وقال في تعريفه، كما في «فوائد الفوائد» (ص ٢٠٥، ٢٠٦): العلم: نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس.

فإن كان الثابت في النفس مطابقًا للحقيقة في نفسها فهو علم

صحيح، وكثير ما يثبت ويتراءى في النفس صور ليس لها وجود حقيقي، فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علمًا، وإنما هي مقدرة لا حقيقة لها! وأكثر علوم الناس من هذا الباب، وما كان منها مطابقًا للحقيقة في الخارج فهو نوعان: نوع لا يحصل للنفس به كمال -وهو كل علم لا يضر الجهل به- فإنه لا ينفع العلم به. ونوع تكمل النفس بإدراكه والعلم به؛ وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه، فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك. انتهى بتقديم وتأخير.

قوله: (﴿فَٱعلَم أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّه﴾ [محمد: ١٩]) لما كان الله سبحانه وتعالى لا يُعْبَد بالجهل، وإنما بالعلم، أمر عباده بتعليم ما يصححون به أصل عبادتهم: التوحيد. فجعل سبحانه وتعالى العلم به، وما يتبع ذلك، شرطًا في تحقيق كلمة الإخلاص. ويوضح ذلك أن العبد متى كان جاهلًا بالله تعذر إخلاص عبادته له غالبًا. وأكبر دليل على ذلك ما كان عليه المشركون قبل بعثة الرسول ﷺ.

فبسبب جهلهم بتنزيه الله عن ما لا يليق به من التشبيه بالمخلوقات، اتخذوا بينهم وبينه وسائط كانوا يعبدونها، ويعتقدون أنها تقرب حوائجهم وطلبهم إلى الله. وذلك تشبيها منهم لله سبحانه وتعالى بملوك الدنيا المحتاجين، بل المفتقرين، إلى وسائط تقوم ببعض حوائجهم. قال تعالى في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. ففي هذه الآية، يذكر الله عن المشركين أنهم

كانوا يعبدون تلك الوسائط، وهذا تصريح منهم بالإشراك في عبادة الله. فتبين بهذا أن الجهل بالله يؤدي بصاحبه إلى الشرك.

ولأجل أن لا يقع العبد في ما وقع فيه المشركون يلزمه في تحقيق كلمة الإخلاص، وتوحيد عبادته لله، أن يتعلم معنى هذه الكلمة، وما يتعلق بها من العلوم.

قوله: (﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف]) تفيد هذه الآية أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا اقترنت بالعلم بالمشهود به. ووجه إفادة ذلك، أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية، والرابط بينها وبين صاحب الحال: واو الحال. وأفاد سيبويه أن ضابط واو الحال: صحة نيابة «إذ» مكانها؛ فيكون تقدير الآية: إلا من شهد بالحق إذ هم يعلمون.

وإذا عُلِم هذا، فليعلم أن الحال قيد لحاملها ووصف لصاحبها، كما ذكره الشنقيطي في تفسير سورة آل عمران، الآية: ٧. فحامل الحال في هذه الآية: ﴿شَهِدَ﴾، وصاحب الحال: الضمير في هذا الحامل. وعليه، يكون العلم قيدًا للشهادة، وصفًا للشاهد حال شهادته. فيفهم أن العلم لا يفارق الشهادة، بل يكون ملازمًا لها، كملازمة المشروط لشرطه. فلا تكون شهادة إلا والعلم يقارنها دائمًا.

ويؤيد هذا المعنى ما أخرجه أبو داود في «سننه»، حيث قال: حدثنا محمد ابن يحيى بن فارس، أن الحكم بن نافع حدثهم، أنبأنا شعيب، عن الزهري، عن عمارة بن خُزيمة، أن عمه حدثه وهو من أصحاب

النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعته. فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أو ليس قد ابتعتُه منك؟**» فقال الأعرابي: لا والله ما بعتكه. فقال النبي ﷺ: «**بلى، قد ابتَعتُهُ منك**»، فطفق الأعرابي يقول: هَلُمّ شهيدًا. فقال خُزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «**بم تشهد؟**». . . الحديث. صححه الشيخ مقبل -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «جامعه». والشاهد منه قوله ﷺ: «**بم تشهد؟**»، فإنه ينبئ أن الشهادة لا تكون إلا مع علم الشاهد بالمشهود به.

فيتبين بما سبق أن هذه الآية في الزخرف تدل على اشتراط العلم في الشهادة.

**قوله: (أي بلا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم)** وأعظم حق يشهد به العبد مع العلم به: شهادته بحق الله، ألا وهو التوحيد. والدليل على هذا الحق حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المتفق عليه، وفيه: أن النبي ﷺ قال: «. . . **فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» الحديث. ولما كان هذا الحق أعظم حق على الإطلاق، كان دخوله في آية الزخرف دخولًا أوليًّا. ومن هنا فُهم تخصيص المؤلف تفسيرها بكلمة التوحيد، ففسر قوله تعالى: ﴿مَن

شَـهِدَ بِـٱلْحَقِّ﴾ : بـلا إلـه إلا الله ﴿وَهُـمْ يَعْلَمُـونَ﴾ بقلـوبهم مـا نطقـوا بـه بألسنتهم. . . وإلا فعموم لفظ هذه الآية يشمل غيرها من الشهادات.

ولما كانت الشهادة بهذا الحق العظيم مفتقرة إلى العلم لتكون شهادة صحيحة، قرن الله في كتابه العزيز شهادته والملائكة بهذا الحق بشهادة أهل العلم، فقال عز من قائل: ﴿شَـهِدَ ٱللَّهُ أَنَّـهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُـوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

والمراد بشرط العلم في كلمة التوحيد العلم بمعناها وبمقتضاها.

قال ابن فارس في «المقاييس»، مادة (أَلَهَ): الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد. فالإله: الله تعالى؛ وسمي بذلك لأنه معبود. ويقال: تَأَلَّهَ الرجلُ: إذا تَعبَّد. انتهى المراد.

فمعنى إله: معبود، ومعنى لا إله إلا الله: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ. ومن أمعن النظر في هذا المعنى لاحظ أننا زدنا لفظة «بحَقّ»، على ما يقتضيه كلام ابن فارس. والعلة في ذلك أنه بدونها يصير معنى هذه الكلمة: لا معبود إلا الله. والمشاهد أن الناس لا يعبدون الله وحدَه كلُّهم، بل منهم من يعبد الأحجار، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الصالحين، والأولياء، والقبور. . . فمعبودات الناس كثرت، وحينئذ تفسير كلمة التوحيد بـ«لا معبود إلا الله» تفسير يخالف الواقع، وهذا باطل قطعًا!

ولأجل تصحيح هذا الخطإ لا بد من زيادة لفظة «بِحَقّ» في معنى

هذه الكلمة، فيُقال في ذلك: لا معبود بحقٍّ إلا الله. وحينئذ، يفهم هذا أن هناك معبودا بحق وهو الله، وما سواه من المعبودات فعبادتها بباطل.

فانحصرت العبادة بحقٍّ في عبادة الله وحده، وعلى ذلك تدل صيغة كلمة التوحيد. إذ من المقرر في علم الأصول أن الاستثناء بعد النفي أقوى صيغة للحصر. وهذا يقتضي أن لا يَصْرف العبد، الذي يشهد بهذه الكلمة شهادة حق، شيئًا من عبادته لغير الله. وإذا صَرَف شيئًا منها لغير الله فقد نقض فعله شهادته، وتعرَّض بسبب ذلك لمقت الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

ولما فَهِم مشركو قريش معنى هذه الكلمة فهمًا صحيحًا -لأنها بلغتهم-، وفهموا أن مقتضاها يلزمهم بترك معبوداتهم كلها، أَبَوْا أن يقولوها: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات]. وبهذا تبين أن مقتضى كلمة التوحيد ترك كل ما يعبد من دون الله، وعدم صرف شيء من عبادة الله لغير الله، وهذا معناه الكفر بعبادة غير الله. وهذا المقتضى قد جعله المصنف في غير هذا الكتاب شرطًا ثامنًا لهذه الكلمة، ونظمه البعض في قوله:

وزِيدَ ثامنُها الكفرانُ منك بما ... سوى الإله من الأشياء قد أُلِهَا

ويدل على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ ۝٢٥٦﴾ [البقرة]، فدلالة هذه الآية

واضحة. وذلك حيث كان فعل الشرط فيها الكفر بعبادة غير الله وكان جواب ذلك التمسك بالعروة الوثقى، التي هي كلمة التوحيد. ويوضح هذا المعنى ما يلي. . .

ومن هنا يتجلى رُكْنَا هذه الكلمة: النفي، وهو المراد بـ«لا إله»، والإثبات، وهو المراد بـ«إلا الله». ومعنى هذين الركنين نفي صحة العبودية عن كل معبود سوى الله، وإثبات العبودية لله وحده. والعبد إذا فهم هذا فهمًا تامًّا تجلت له حكمة التخلية قبل التحلية. وذلك أنه لا يمكن للعبد أن يحقق معنى «إلا الله»، الذي هو التحلية بإخلاص العبادة لله وحده، إلا بعد تحقيقه لـ«لا إله»، الذي هو التخلية عن كل عبادة لغير الله بالبراءة منها، والكفر بها. ولما تمسك إبراهيم عليه السلام بهذين الركنين تمسُّكًا صحيحًا جعله الله لنا أسوة حسنة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا الأصل قد بينه الله في القرآن بيانًا واضحًا، لما له من الأهمية العظمى. لأن عبادة العبد إذا أشرك فيها غير الله لا تنفع، بل تضره، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]. فلا بد للعبد الذي يريد أن يتحلى بإخلاص العبادة لله أن يتخلى ويكفر بكل ما يعبد من دون الله. وإذا فعل ذلك تمسك بالعروة الوثقى حقًّا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴿٢٥٦﴾ [البقرة].

وقال تعالى في بيان هذا الأصل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر]. فهذه الأدلة، وغيرها كثير، كلها متضافرة في بيان ركني النفي والإثبات في كلمة التوحيد.

ثم اعلم -رحمك الله- أن مجرد العلم بمعنى «لا إله إلا الله» لا يكفي. فهؤلاء مشركو قريش كانوا يعلمون ذلك، ويفهمونه، ومع ذلك لم يُدْخلهم علمهم في الإسلام. لا لأنهم ما علموا معناها، وإنما لأنهم ما عملوا بمقتضاها، الذي هو الكفر والبراءة بكل ما يعبد من دون الله. ولهذا كانوا إذا دعوا إلى القول بكلمة التوحيد، أجابوا بقولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات].

ومن تأمل في هذا تبين له أن مشركي قريش كانوا أعلم بمعنى «لا إله إلا الله» من كثير من المسلمين. فقد ذكر الشيخ صالح بن فوزان، في شرحه على «تفسير كلمة التوحيد»، معنى هذه الكلمة عند بعض الفرق الضالة. فقال -حفظه الله-: تفسير أهل وحدة الوجود لكلمة التوحيد:

لا معبود إلا إله، ولا إله موجود إلا الله، معنى هذا أن كل المعبودات كلها هي الله. انتهى. وهذا من أبطل الأباطيل؛ لأنه يفهم أن من عبد القبور، والأحجار، والأشجار، والأولياء،. . . فقد عبد الله لا غير. وهذا يستلزم منه أن هذه المعبودات هي الله بذاته، وهذا كفر لا كفر بعده!

ثم ذكر الشيخ الفوزان تفسير علماء الكلام لكلمة التوحيد بأنه: لا قادر على الاختراع والخلق والتدبير والإيجاد إلا الله. انتهى. وهذا المعنى كان يُقرُّ به مشركو قريش، بل كانوا يُقرُّون لله بما هو أبلغ. فإنهم كانوا يعترفون بإفراد الله في التدبير والخلق. . . ، لا مجرد القدرة على ذلك فقط. ولا شك أن الاعتراف بالفعل أبلغ من الاعتراف بمجرد القدرة عليه؛ إذ ليس كل قادر على الفعل يفعل.

ويدل على اعتراف مشركي قريش بذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الزمر: ٣٨]، وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على اعترافهم بهذا المعنى. ومع ذلك لم يدخلهم هذا الاعتراف في الإسلام.

ثم ذكر الشيخ الفوزان تفسير «لا إله إلا الله» عند الجهمية والمعتزلة أنه: نفي الأسماء والصفات؛ لأن من أثبت الأسماء والصفات عندهم يكون مشركًا، والتوحيد عندهم نفي الأسماء والصفات. انتهى. وأساس شبهتهم تنزيه الله عز وجل عن التمثيل والتشبيه؛ حيث قالوا إذا أثبتنا لله

الأسماء والصفات فقد شبهناه بالمخلوق الذي هو متصف بهذه الأسماء والصفات، والله منزه عن ذلك. ولأجل أن لا نقع في تشبيه الله وتمثيله بالمخلوق ننفي عن الله الأسماء والصفات.

وقد بسط العلماء الرد على هؤلاء، لكن نكتفي هنا بإشارة إلى شيء من ذلك. فنقول: هذا القط، المعروف لدى الجميع، متصف بصفة اليد، والإنسان متصف بنفس الصفة، فهل يلزم مِن اشتراكهما في هذه الصفة تشبيه الإنسان بالقط، أو تشبيه يد الإنسان بيد القط؟ فإذا كان اشتراكهما في هذه الصفة -وهما مخلوقان- لا يلزم المشابهة والتمثيل بينهما، فلأن لا يلزم ذلك بين الخالق والمخلوق من باب أولى؛ قال تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

**ثم قال الشيخ الفوزان -حفظه الله-:** تفسير الحزبيين والإخوانيين اليوم يقولون: (لا إله إلا الله) أي: لا حاكمية إلا لله. انتهى. وقد رد الشيخ الفوزان نفسه على هذا قائلا: والحاكمية كما يسمونها جزء من معنى لا إله إلا الله، لأن معناها شامل لكل أنواع العبادات فنقول لهم: وأين بقية العبادات. . . هل العبادة هي الحاكمية فقط؟ انتهى.

**وسئل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:** ما تقول -عفا الله عنك- في من أضاف للتوحيد قسمًا رابعًا، سماه توحيد الحاكمية؟ فأجاب: إنه ضال وجاهل؛ فإن توحيد الحاكمية داخل في الربوبية لأن توحيد الربوبية هو توحيد الحكم والخلق والتدبير لله عز وجل. انتهى باختصار من شريط: ١٠٥، «لقاء الباب المفتوح».

وعلى ضوء ما ذكره هؤلاء الأئمة، يمكن إدخال توحيد الحاكمية إما في توحيد الألوهية وإما في توحيد الربوبية. فبالنظر إلى أن الله -عز وجل- هو الرب المالك لمخلوقاته المدبر لها بحكمته التامة، التي لا يشاركه فيها أحد، فيكون توحيد الحاكمية داخلًا في توحيد الربوبية. وبالنظر إلى أن العباد يتعبدون لله بما شرع لهم من الأحكام، التي لا يشاركه سبحانه وتعالى فيها أحد، فتوحيد الحاكمية داخل في توحيد الألوهية. وعلى كل فالقول بجعل توحيد الحاكمية قسمًا مستقلًا عَنْ أقسام التوحيد الثلاثة قول مُبْتدَع لا يعرف عند السلف.

قوله: (**بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم**) يعني: أن الذين يشهدون بألسنتهم بكلمة التوحيد شهادة صحيحة يعلمون معناها بقلوبهم، فيعقلونه، ويعتقدونه. وهذا يخالف ما عليه المنافقون الذين لا يفقهون معنى هذه الكلمة، ولا غيرها من أمور الدين، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقين]. وكيف يفقهون ما ليس في قلوبهم، ولا يصل إليها؛ فإنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]!

فتبين بهذا وبما سبق، أنه كما لا يكفي مجرد العلم بكلمة التوحيد، فكذلك لا يكفي مجرد التلفظ بها. بل لا بد مع التلفظ بهذه الكلمة من العلم بها علمًا صحيحًا ينتج عقد القلب عليه عقدًا جازمًا لا يتخلله الشك والريبة. وسيأتي لهذا المعنى مزيد إيضاح إن شاء الله.

قوله: (**ومن السُّنة**) بعد سياق المؤلف الأدلة من الكتاب، انتقل إلى ما يتعلق بذلك من السُّنة. لكن لا يفهم من تأخير أدلة السُّنة في السياق

أن الاستدلال بها دون الاستدلال بالقرآن، بل السُّنة الثابتة في المرتبة الأولى مع القرآن عند الاستدلال لأنها وحي من الله أيضًا. وقد اتفق العلماء على ذلك، قال الإمام الشوكاني في «الإرشاد» (ص ٦٨): اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السُّنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**» أي أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السُّنة. انتهى.

ولا حجة على خلاف ذلك في ما أخرجه أبو داود، والترمذي، وغيرهما، أن رسول الله ﷺ بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «**كيف تقضي؟**» فقال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**» قال: فبِسُنَّةِ رسول الله ﷺ. . . الحديث. قد يقول قائل: قوله: «فبِسُنَّة رسول الله ﷺ» ظاهر لفظه يفيد أن السُّنَّةَ في المرتبة الثانية بعد القرآن؛ إذ الفاء تفيد الترتيب. فيفهم لفظ هذا الحديث أن السُّنة في مرتبة بعد مرتبة القرآن. لكن هذا الحديث لا يثبت، فقد روي تارة متصل السند، وتارة منقطعًا. ورجح الإمام الترمذي الرواية المنقطعة؛ حيث قال، بعد ذكره هذا الحديث في «سننه»(١٣٢٨): هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل. انتهى. ومع هذه العلة، ففي السند إبهام شيخ الحارث بن عمرو -وفي نسخة «سنن» الترمذي التي بين يديّ: الحرث-.

**قوله:** (**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله**) قال الشيخ محمد أمان

الجامي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٤٠): يجمع بين هذا الحديث وبين الأحاديث الأخرى التي فيها «**من قال لا إله إلا الله**»، فنستفيد من قوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله**» اشتراط التلفظ، ومن هذا الحديث اشتراط العلم، أي التلفظ مع العلم: «**من مات وهو يعلم**» وهذه جملة حالية، والحال أنه يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة. انتهى. وفي هذا إشارة إلى أن الأعمال بالخواتيم، وكفى في شرح هذه الفقرة من الحديث بقول النبي ﷺ: «**فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**». متفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُذْكَر في هذا الموضع حديثان؛ أولهما: ما أخرجه الشيخان من حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله**» الحديث. والثاني: ما أخرجه البخاري في «صحيحه»؛ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «**أسلم**»، فنظر إلى أبيه -وهو عنده- فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**». فيستفاد من هذين الحديثين أن الشهادة

بكلمة التوحيد عند الموت تنفع صاحبها، والحديث الثاني أصرح من الأول في نجاة قائلها من النار.

**قوله:** (**دخل الجنة**) قد يكون دخول الموحد الجنة دخولًا أوليًّا، وقد يكون دخوله إياها بعد دخول النار بسبب ما ارتكبه من المعاصي. لكن مآل الموحد إلى الجنة، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه. قال الإمام النسائي -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «التفسير» (ج: ١، ص: ٦٢٦): أخبرني عثمان بن عبد الله، قال: حدثني محمد ابن عباد المكي، نا حاتم بن إسماعيل، نا أبو الحسن الصيرفي -وهو بسام- عن يزيد بن صهيب الفقير، قال: كنا عند جابر فذكر الخوارج، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ناسًا من أمتي يعذَّبون بذنوبهم، فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يُعيِّرهم أهل الشرك فيقولون لهم: ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم. لما يريد الله أن يُرِيَ أهل الشرك من الحسرة، فما يبقى موحد إلا أخرجه الله**»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر]. ذكر هذا الحديث الإمام مقبل -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «الجامع الصحيح»، وحسَّنه.

ولما كان صاحب العلم قد يفسد سوء إرادته علمه، وذلك بأن يقصد به غير وجه الله، عقب المؤلف شرط العلم بشرط اليقين. وذلك إرشادًا منه إلى أن اليقين يورث صحة الإرادة. قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- كما في «فوائد الفوائد» (ص ٢٠٦): وأما العلم؛ فآفاته تكون من فساد العلم تارة، ومن فساد الإرادة تارة.

**وأما فساده من جهة القصد:** فأن لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة؛ بل يقصد به الدنيا والخلق.

والإيمان واليقين يورثان صحة الإرادة، وهما يورثان الإيمان ويَمُدَّانه. انتهى باختصار وتصرف يسير.

* * *

## الشرط الثاني

**ودليل اليقين:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات]، فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، أما المرتاب فهو من المنافقين.

**ومن السُّنة:** الحديث الثابت في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**». وفي رواية: «**لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة**». وعن أبي هريرة أيضًا من حديث طويل: «**من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها من قلبه فبشره بالجنة**».

---

**قوله: (اليقين)** في اللغة، كما قاله ابن فارس في «المقاييس»، مادة (يقن): اليقين: زوال الشك، يقال: يقنت، واستيقنت، وأيقنت. انتهى. وتعريفه في الشرع حول هذا المعنى؛ قال القرطبي في «المفهم»، شرح حديث (٢٥): واليقين هو العلم الراسخ في القلب الثابت فيه. انتهى. وقد ذكر هذا القول عن الجنيد؛ قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٢٢): قال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول، ولا يتغير، في القلب. انتهى. فتبين أن الفرق بين العلم واليقين ما قاله أبو بكر بن ظاهر: العلم تعارضه الشكوك، واليقين لا شك فيه.

أفاده ابن القيم «المدارج» (٢/ ٣٢١).

وجمع الشيخ محمد الجامي، في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٤٤)، بين هذه المعاني فعرَّف اليقين بأنه: أعلى مراتب العلم، العلم هو المعرفة؛ هذه المعرفة قد يتطرق إليها الشك والتردد والاضطراب، وإذا تجاوز العلم هذه المرتبة فوصل إلى درجة الثبوت والرسوخ يسمى: اليقين. انتهى. وبنحو هذا المعنى عرفه شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٣/ ٣٢٩)، قائلًا: وأما اليقين فهو طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه، وهو معنى ما يقولون: «ماء يقن» إذا استقر عن الحركة. وضد اليقين الريب، وهو نوع من الحركة والاضطراب، يقال: رابني يريبني، ومنه في الحديث: أن النبي ﷺ مر بظبي حاقف، فقال: «**لا يريبه أحد**». انتهى.

ويستفاد من هذا أن اليقين قيد يقيد به العلم، كما قيده الله به في قوله -جل ذكره-: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر]. وعليه، فلا يحقق العبد شهادته بكلمة التوحيد إلا بقيد علمه بها، وبما يتعلق بها، باليقين. وإلا فعلمه بدون هذا القيد لا ينجيه من النار، قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٢٠): وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة]. وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا

نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ [الجاثية]. انتهى.

فظهر بهذا أن العلم بكلمة التوحيد لا ينفع صاحبه إلا مقرونًا باليقين. والشك، والتردد، في كلمة التوحيد مع التلفظ بها من صفات المنافقين. فإنهم ينطقون بكلمة التوحيد كما نص عليه القرآن: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]. لكن لما كان نطقهم بها على غير يقين -بل على ارتياب وتردد- لم يدخلهم ذلك في الإيمان، قال -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة]. ولا شك أن المنافقين الذين أنزل الله فيهم هذه الآيات كانوا عالمين بمعناها؛ إذ هم كانوا من العرب. فعلم أن مجرد العلم بمعنى هذه الكلمة مع النطق بها لا يدخل صاحبه في الإيمان، ولا ينجيه يوم القيامة. فدل ذلك على اشتراط اقتران اليقين في الشهادة بكلمة التوحيد.

قوله: (ودليل اليقين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات]) قد استنبطنا مما تقدم ما يدل على اشتراط اليقين في الشهادة بكلمة التوحيد. وشرع المؤلف بالآية المذكورة هنا في ذكر ما هو أصرح في المقصود.

ووجه الاستدلال بهذه الآية بالنظر إلى إفادة «إنَّما» الحصر عند الجمهور. قال الحافظ ابن رجب كما في «مجموع رسائله» (١/ ٣١٦- . . .): وإن «ما» هي الكافة، فنقول: إذا دخلت «ما» الكافة على «إنّ»

أفادت الحصر. وقد حكاه بعض العلماء عن جمهور الناس. والصواب: أنها تدل على الحصر. ودلالتها عليه معلومة بالاضطرار من لغة العرب، كما يعلم من لغتهم بالاضطرار معاني حروف الشرط، والاستفهام، والنفي، والنهي، وغير ذلك.

وأما أنها مركبة من «إن» و «ما» الكافة، فمُسَلَّم، ولكن قولهم: أن «مَا» الكافة أكثر ما تفيد قوة التوكيد، لا تفيد معنى زائدًا، يجاب عنه: أن يقال: لا ريب أن «إنّ» تفيد توكيد الكلام، و«ما» الزائدة تقوي هذا التوكيد، وتثبت معنى الكلام، فتفيد ثبوت ذلك المعنى المذكور في اللفظ خاصة ثبوتًا لا يشاركه فيه غيره، واختصاصه به، وهذا من نوع التوكيد والثبوت ليس معنى آخر مغايرًا له، وهو الحصر المدعى ثبوته بدخول «ما» فلم يخرج عن إفادة قوة معنى التوكيد. انتهى الراد.

وعليه، فتدل الآية على حصر الإيمان في الذين لا يرتابون في إيمانهم بالله وما يتعلق بذلك من التوحيد وغيره. فدل ذلك أيضًا، على اشتراط اليقين، المنافي للارتياب، في الشهادة بكلمة التوحيد.

قوله: (﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات]، **فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي لم يَشُكُّوا، أما المرتاب فهو من المنافقين**) قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٧/ ٢٨٠): وفي الجملة، ففي الأخبار عمن نافق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا، فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة

والنفاق ماتوا على هذا الإسلام الذي يثابون عليه، ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين امتحنوا فثبتوا على الإيمان، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الإيمان، ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق أكثرهم أو كثير منهم. ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسول باطنًا وظاهرًا لكن إيمانًا لا يثبت على المحنة. ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم. وهؤلاء من الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فقيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: الإيمان المطلق، الذي أهله هم المؤمنون حقًّا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله - تعالى- كما دل عليه الكتاب والسُّنة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم؛ ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا، وإلا فإذا كان عالمًا بالحق، ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعًا عظيمًا، لم يكن صاحب يقين قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ .

وكثيرًا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق، ثم يتوب الله عليه، وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق، ويدفعه الله عنه. والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان، وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره، كما قالت الصحابة: يا رسول الله، إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض، أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «**ذاك صريح الإيمان**»، وفي رواية: ما يتعاظم أن يتكلم به. قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» أي: حصول هذا الوسواس، مع هذه الكراهة العظيمة له، ودفعه عن القلب، هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءه العدو، فدافعه حتى غلبه، فهذا أعظم الجهاد، والصريح الخالص، كاللبن الصريح. وإنما صار صريحًا، لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية، ودفعوها فخلص الإيمان فصار صريحًا.

ولا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس، فمن الناس من يجيبها فيصير كافرًا أو منافقًا، ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين، فإما أن يصير مؤمنًا وإما أن يصير منافقًا؛ ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا؛ لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به؛ فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة؛ ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله. انتهى المراد.

وعليه، فمن ابتلي واطمأن قلبه للحق، وثبت، دل ذلك على يقين قلبه، وثبوت ما فيه من العلم بالله. وهذا دليل إيمان العبد، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومن ارتاب عند المحن دل ذلك على عدم يقينه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات]. فاليقين يحمل صاحبه على تصديق أقواله بأفعاله، قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٢٠-. . .): فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدِّيقيَّة. واليقين يحمله على الأهوال، وركوب الأخطار. وهو يأمر بالتقدم دائمًا. فإن لم يقارنه العلم حمل على المعاطب. والعلم يأمر بالتأخر والإحجام. فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم. والله أعلم. وتأمل حال ذلك الصحابي الذي أخذ تمراته، وقعد يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها. فلما عاين سوق الشهادة قامت، ألقى قُوتَه من يده، وقال: إنها لحياة طويلة، إن بقيت حتى آكل هذه التمرات. وألقاها من يده، وقاتل حتى قتل. وكذلك أحوال الصحابة رضي الله عنهم. انتهى المراد.

ومن أمثال الثبات على الحق، واليقين، عند المحن ما أخرجه الإمام البخاري؛ عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ

وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعوا الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**».

**قوله**: (**ومن السُّنة: الحديث الثابت في الصحيح عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**». **وفي رواية**: «**لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة**») قال الإمام النووي في شرحه «صحيح مسلم»، في كلامه على هاتين الروايتين (٤٤)-(٢٧) و(٤٥)-(. . . ): هذان الإسنادان مما استدركه الدارقطني وعلله. فأما الأول: فعلله من جهة أن أبا أسامة وغيره خالفوا عبيد الله الأشجعي، فرووه عن مالك بن مغول عن طلحة عن أبي صالح مرسلًا. وأما الثاني: فعلله لكونه اختلف فيه عن الأعمش. فقيل فيه أيضًا: عنه عن أبي صالح عن جابر، وكان الأعمش يشك فيه.

**قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هذان الاستدراكان من الدارقطني مع أكثر استدراكاته على البخاري ومسلم قدح في أسانيدهما غير مخرج لمتون الأحاديث من حيز الصحة. وقد ذكر في هذا الحديث أبو مسعود إبراهيم بن محمد الدمشقي الحافظ فيما أجاب الدارقطني

عن استدراكاته على مسلم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-؛ أن الأشجعي ثقة مجوِّد، فإذا جود ما قصر فيه غيره حكم له به. ومع ذلك فالحديث له أصل ثابت عن رسول الله ﷺ برواية الأعمش له مسندًا، وبرواية يزيد بن أبي عبيد وإياس بن سلمة بن الأكوع عن سلمة. قال الشيخ: رواه البخاري عن سلمة عن رسول الله ﷺ. وأما شك الأعمش فهو غير قادح في متن الحديث، فإنه شك في عين الصحابي الراوي له، وذلك غير قادح؛ لأن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كلهم عدول. هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-. انتهى المراد.

فتبين أن العلتين المذكورتين لا تقدحان في صحة الحديث، ولا في استدلال المؤلف به على اشتراط اليقين في الشهادة بكلمة التوحيد. وهذا الاستدلال نص في ذلك، بينما حجة الآية السابقة على ذلك قد يتنازع فيها من حيث دلالة الأداة «إنّما» على الحصر.

ويلاحظ في الحديث المذكور أن النبي ﷺ قارن الشهادة بكلمة التوحيد بالشهادة بالرسالة، واشترط اليقين، وعدم الشك، فيهما معًا. ومن المعلوم أن الشهادة بالرسالة تتضمن العمل بها، قال ابن كثير في تفسير سورة البقرة، الآية: ٦٢: فلما بعث الله محمدًا ﷺ خاتمًا للنبيين، ورسولًا إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. انتهى.

فإذا ظهر هذا المعنى في الشهادة بالرسالة ظهرت النكتة في اقتران النبي ﷺ هذه الشهادة بالشهادة بكلمة التوحيد، وذلك أن العمل بما جاء به النبي ﷺ سبب لحصول اليقين. قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٣/ ٣٣٠-. . . ): وأما كيف يحصل اليقين؟ فبثلاثة أشياء: أحدها: تدبر القرآن. والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق، التي تبين أنه حق. والثالث: العمل بموجب العلم.

فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النساء] الآيات. -ففي هذه الآية دلالة بينة على أن العمل بما يسمع في الموعظة من العلم سبب لشدة التثبيت. وأطلق فيها التثبيت، فيشمل جميع أنواع التثبيت بما في ذلك تثبيت القلب الذي هو اليقين، كما تقدم. فتكون هذه الآية ظاهرة الدلالة في بيان حصول اليقين بالعمل بموجب العلم. -.

وأما العلم فيراد به في الأصل نوعان: أحدهما: العلم به نفسه، وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنى. وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة؛ فإنه لا بد أن يعلم أن الله يثيب على طاعته، ويعاقب على معصيته، كما شهد به القرآن والعيان. وهذا معنى قول أبي حيان التيمي -أحد أتباع

التابعين- العلماء ثلاثة: عالم بالله ليس عالمًا بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله وبأمر الله. فالعالم بالله الذي يخشى الله، والعالم بأمر الله الذي يعرف الحلال والحرام. وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: إنما العالم من يخشى الله. وقال عبد الله بن مسعود: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا. والنوع الثاني: يراد بالعلم بالله: العلم بالأحكام الشرعية، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه ترخص في شيء، فبلغه أن أقوامًا تنزهوا عنه، فقال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها! والله إني لأعلمكم بالله، وأخشاكم له**»، وفي رواية: «**والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده**» فجعل العلم به هو العلم بحدوده. انتهى باختصار.

**قوله: (وعن أبي هريرة أيضا من حديث طويل: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها من قلبه فبشره بالجنة»)** ثم ذكر المؤلف بعد الحديث السابق ما هو أصرح منه في المقصود، حيث فسر أن المراد بقوله: «غير شاك» فيه ما ذكر في الحديث هنا: «مستيقنًا». وبهذا يظهر أيضًا أن اليقين ضد الشك، وأنه مناف له. فيكون المصنف بين بهذا الحديث أن اليقين المشترط في كلمة التوحيد هو الذي ينفي الشك، ولا يُبقي له أثرًا. قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٣٢١): ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا. وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم. انتهى.

ثم ليعلم أن اليقين وحده لا يكفي لسلامة صاحبه من الكفر، لأن الله

تبارك وتعالى يقول: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أن قوم فرعون لما جاءتهم آيات ربهم كفروا بها كفر جحود، مع أن قلوبهم استيقنت ما جاءهم به موسى عليه السلام من الآيات. فاتضح أن اليقين وحده غير كاف في تحقيق الشهادة بكلمة التوحيد، بل لا بد من وجود الشروط الأخرى.

ولما كان اليقين هو الحامل لصاحبه على العمل للقاء ربه، ناسب أن يذكر المؤلف عقبه، أثناء ذكره لشروط لا إله إلا الله، الشرط الذي لا يصح العمل إلا به، الإخلاص. فقال -رحمه الله-:

* * *

# الشرط الثالث

**ودليل الإخلاص:** قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

**وقوله سبحانه:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

**ومن السُّنة:** الحديث الثابت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه - أو من نفسه-**».

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل**».

وللنسائي في (اليوم والليلة)، من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مخلصًا من قلبه يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقًا، حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر إليه الله أن يعطيه سؤله**».

---

**قوله: (الإخلاص)** في اللغة، ما قاله ابن فارس في «المقاييس»، مادة (خلص): الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه. انتهى. ومعنى الإخلاص في الشرع ملاق لمعناه اللغوي، قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٧٦): قيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. انتهى. وهذان

التعريفان، وإن كان ابن القيم ذكرهما بصيغة التمريض، إلا أنه ارتضاهما في «نونيته». حيث جمع بينهما في تعريفه الإخلاص، فقال: وحقيقة الإخلاص إفراد المراد، فلا يخالطه مراد ثاني. انتهى.

ووضح -رَحِمَهُ اللَّهُ- المراد بهذا الكلام (٢/ ٧٧)، قائلًا: أي؛ لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان. انتهى.

قوله: (قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]) قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ١٤-١٥): وأما الإخلاص فهو حقيقة الإسلام، إذ الإسلام هو: الاستسلام لله لا لغيره، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] الآية. فمن لم يستسلم لله فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر. ولهذا كان رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ [آل عمران].

وهذا الذي ذكرناه، مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة: هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: «**الحلال بين، والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**». انتهى المراد.

فالعبد المخلص لا يريد بعبادته إلا وجه الله دون أن يلتفت إلى غيره، إذ الإخلاص مناف للشرك مطلقًا، الأكبر والأصغر. وحامل العبد الذي يجعله لا يلتفت إلى غير الله خوفه أن لا يقبل عمله. أخرج مسلم في «صحيحه»؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**». وقال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**». هذا

الحديث أخرجه الإمام أحمد، وغيره، عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد حسنه شيخنا محمد بن حزام في تحقيقه على «فتح المجيد».

فتبين بهذا أن الشرك مبطل للأعمال، ويلزم من هذا أن يكون الإخلاص شرطًا لقبول العمل، قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٧٥): وقال -تعالى-: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل. وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يقبل. حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله. انتهى المراد. فلا يريد المخلص بعبادته إلا وجه الله لا غير؛ فهو مقبل على الله، معرض عما سواه. وهذا العبد هو الذي تمسك -كما أمره الله- بحقيقة الإخلاص: الحنِيفيّة.

قوله: (قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]) بعد ذكر المصنف دليل الإخلاص، بين بهذه الآية أن حقيقته الإقبال على الله والإعراض عما سواه، قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٨١): فحقيقة الإخلاص: توحيد المطلوب. انتهى. وقال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٩/ ٣١٩): . . . أن يكون

القلب مقبلًا على الحق والعلم والذكر معرضًا عن غير ذلك، وتلك هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام فإن الحنف هو إقبال القدم وميلها إلى أختها، فالحنف الميل عن الشيء بالإقبال على آخر، فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده والإعراض عما سواه، وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق، والكلمة الطيبة: لا إله إلا الله. انتهى.

ومن أجمل ما يبين العلاقة بين الإخلاص والحنفية ما قال الحافظ ابن رجب، كما في «مجموع رسائله» (٢/ ٣٦٩-٣٧٢): وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد: «لا إله إلا الله» يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالًا، ومحبة وخوفًا ورجاء، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: «لا إله إلا الله»، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشأُها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه، كما ورد في صحيح إطلاق الشرك على الرياء، وعلى الحلف بغير الله، وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة، مثل أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة، والرقى المكروهة، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه، قادح في تمام التوحيد وكماله.

ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشأُها من اتباع هوى النفس بما هو كفر وشرك، كقتال المسلم، ومن أتى حائضًا، أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة بالكلية. لهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك. وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال الحسن: هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال قتادة: هو الذي كُلَّمَا هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى.

ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**». فدل هذا على أن كل من أحب شيئًا وأطاعه، وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله، وعادى لأجله، فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه.

ويدل عليه أيضا أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصية عبادة للشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى حاكيًا عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهم الذين

حققوا قول: «لا إله إلا الله» وأخلصوا في قولها، وصدقوا قولهم بفعلهم، فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء، وخشية وطاعة وتوكلًا، وهم الذين صدقوا في قول: «لا إله إلا الله» وهم عباد الله حقًّا.

**فأما من قال:** «لا إله إلا الله» بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. انتهى باختصار. ويدل على نقص عبادته، وتوحيده، بقدر طاعته للشيطان، ما ذكره ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٧٩): فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل، وللنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد**». فإذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة، فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

**وقال ابن مسعود:** لا يجعل أحدكم للشيطان حظًّا من صلاته، يرى أن حقًّا عليه: أن لا ينصرف إلا عن يمينه. فجعل هذا القدر اليسير النزر حظًّا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد. فما الظن بما فوقه؟ انتهى.

**ثم قال الحافظ ابن رجب تتميمًا لما سبق:** فيا هذا كن عبد الله لا عبد الهوى، فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف]، تعس عبد الدرهم! تعس عبد الدينار!

والله ما ينجو غدًا من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده، ولم يلتفت معه إلى شيء من الأغيار، من علم أن إلهه ومعبوده فرد، فليفرده بالعبودية، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا. انتهى باختصار.

**قوله: (ومن السُّنَّة: الحديث الثابت في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه -أو من نفسه-»)** والحديث يدل على أن أسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ من أخلص في شهادته بكلمة التوحيد. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»، شرح الحديث (٩٩): ومعنى أفعل في قوله: «**أسعد**» الفعل لا أنها أفعل التفضيل أي سعيد الناس، ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل على بابها، وأن كل أحد يحصل له سعد بشفاعته لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها، فإنه ﷺ يشفع في الخلق لإراحتهم من هول الموقف، ويشفع في بعض الكفار بتخفيف العذاب، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها، فظهر الاشتراك في السعادة بالشفاعة وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص. والله أعلم. انتهى المراد.

وإجراء صيغة التفضيل على بابها هو الظاهر من الحديث، وهذا الأصل في إجراء النصوص. ويؤيد عدم التأويل ما سيأتي قريبا -إن شاء الله-، أن العبد كلما أخلص عبادته لله كان ذلك سببًا أقوى في ابتعاده عن النار، وهذا يقتضي أن سعادته بشفاعة رسول الله ﷺ أعظم. فظهر

أن تفاضل الناس في الشفاعة بحسب تفاضلهم في إخلاص الألوهية لله.

والشفاعة في اللغة، ما قاله ابن فارس في «المقاييس»، مادة (شفع): الشين والفاء والعين، أصل صحيح يدل على مقارنة الشيء. . . وشفع فلان لفلان إذا جاء ثانيه ملتمسًا مطلبه ومعينًا له. . . انتهى. وهي في الشرع ما ذكره شيخ الإسلام، أثناء كلامه على هذا الحديث، في «مجموعة الفتاوى» (٧/ ٧٨): فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله، ليست لمن أشرك بالله، ولا تكون إلا بإذن الله. وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ، كما كان في الدنيا يستسقي لهم ويدعو لهم، وتلك شفاعة منه لهم، فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته. انتهى.

**قوله: (وفي الصحيح عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل»)** قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله- كما في «مجموع رسائله» (٢/ ٣٦٢-٣٦٥): وأحاديث هذا الباب نوعان: أحدهما: ما فيه أن من يأتي بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها وهذا ظاهر، فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار.

وحديث أبي ذر في معناه: أن الزنا والسرقة لا يمنعان دخول الجنة

مع التوحيد، وهذا حق لا مرية فيه، ليس فيه أنه لا يعذب عليهما مع التوحيد. وفي «مسند البزار» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**من قال: لا إله إلا الله نفعته يومًا من دهره، يصيبه قبل ذلك ما أصابه**».

**والثاني**: ما فيه أنه يحرم على النار، وهذا قد حمله بعضهم على الخلود فيها، أو على نار يخلد فيها أهلها، وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله خلق كثير من عصاه الموحدين، بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين.

**وفي «الصحيحين»**: «**إن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله**».

**وقالت طائفة من العلماء**: المراد من هذه الأحاديث أنّ «لا إله إلا الله» سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضٍ لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه، لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن، ووهب بن منبه وهو الأظهر. انتهى. وعلى هذا يفهم حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا بد لنجاة العبد مع الإخلاص من توفر سائر الشروط، وانتفاء الموانع.

وبين شيخ الإسلام أن العبد كلما حقق الإخلاص في شهادته بكلمة التوحيد كان ابتعاده عن النار، وقربه من الجنة، أعظم. فإنه قال في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٢٦٠-٢٦١): وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله، خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتصرف عنه

المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف]، فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**من قال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، حرمه الله على النار**».

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين: لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة]، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله؛ إما خوفًا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك. انتهى.

وهذا ينبئ بأن إخلاص التوحيد ليس بالأمر الهين، وإنما الموفق من وفقه الله للإخلاص، وأخلصه من شوائب الشرك. ونصيحة لنفسي ولإخواني أحببت -بالمناسبة- أن أذكر الأمور التي يحصل بها العبد الإخلاص. وهي ما أفاده ابن القيم كما في «فوائد الفوائد» (ص ٢١ و٣٧٣-٣٧٢)؛ حيث قال: لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة

المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس؛ إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسَهِّل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلتُ: أما ذبح الطمع؛ فيُسَهِّلُه عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئًا سواه. وقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] متضمن لكنز من الكنوز؛ وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

وأما الزهد في الثناء والمدح؛ فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمي شين، فقال: «**ذلك الله عز وجل**». فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ

أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب. وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه. فاجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى. انتهى بتقديم وتأخير.

ثم كيف يطلب العبد مدحًا على عمل لم يحصل إلا بتوفيق الله ومشيئته، ولولا إعانة الله العبد ما صدر منه إلا الشر؟ فكيف يطلب العبد المدح على شيء هو من فضل الله وحده؟ وكيف يطلب العبد المدح على عمل إن أمعن فيه النظر ظهر فيه التقصير البين، والعيب الواضح؟ فعلى العبد أن يعالج نفسه وعمله من الآفات العارضة. . . قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٧٨-٧٩): يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

**فالذي يخلصه من رؤية عمله:** مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عَمَلَهَ مَشيئَةُ الله لا مشيئتُه

هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]، وأنه لو خلى ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة. فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات، والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء. وما كان هكذا لم يصدر منه خير، ولا هو من شأنه. فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله، وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه. فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله. فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه.

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبد محض. والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرة؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته. فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسان إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة. إذ الأجرة إنما يستحقها الحر، أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران: أحدهما:

مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان. الثاني: علمه بما يستحقه الرب -جل جلاله-: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقًّا، وأن يرضى بها لربه. انتهى المراد.

**قوله:** («**يبتغي بذلك وجه الله ﷻ**») وأعظم المواقف التي يكون فيها العبد أخلص، بحيث يكون فيه مقبلًا على ربه بالكلية، معرضًا عن ما سواه ألبتة، عند الموت. فإذا وفق الله العبد في ذلك الموقف للشهادة، فإنه لا يشهد بها إلا وهو مبتغ بذلك وجه ربه الأعلى لا غير. وبيان ذلك ما قاله ابن القيم كما في «فوائد الفوائد» (ص ٨٨): لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه؛ فوجه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سره وعلانيته فقال: لا إله إلا الله؛ مخلصًا من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره،

والالتفات إلى ما سواه.

قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرها علانيتها؛ فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفر إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان. انتهى.

قوله: **(وللنسائي في (اليوم والليلة)، من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «من قال: . . . »)** أخرج الحديث الإمام النسائي في «عمل اليوم والليلة». وأخرجه في «السنن الكبرى» (٩٨٥٦)؛ فقال: أني إبراهيم بن يعقوب، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثني وبر، قال: ثني محمد بن عبد الله بن ميمون، عن يعقوب بن عاصم؛ أنه سمع رجلين من أصحاب النبي ﷺ أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**ما قال عبد قط لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مخلصًا بها روحه، مصدِّقًا بها قلبه لسانه، إلا فتق له أبواب السماء حتى ينظر الله إلى قائلها، وحق لعبد نظر الله إليه**

**أن يعطيه سؤله».**

**قلت:** وهذا السند رجاله كلهم محتج به إلا محمد بن عبد الله بن ميمون، وهو ابن مسيكة الطائفي، فإنه مجهول. فالحديث ضعيف، ولم أجد له شاهدًا ولا متابعة. ولكن عند الترمذي ما هو أنص في ما نحن بصدده، فإنه قال في «سننه»، باب دعاء أم سلمة: ثنا الحسين بن علي بن يزيد الصدائي البغدادي، ثنا الوليد بن القاسم بن الوليد الهمداني، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما قال عبد: لا إله إلا الله قط مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنب الكبائر**». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. انتهى.

**قلت:** شيخ الترمذي، الحسين بن علي بن يزيد الصدائي، قد وثقه ابن خراش. نقل ذلك الحافظ في «تهذيب التهذيب»، ترجمة الحسين ابن علي الصدائي؛ حيث قال: وعنه: الترمذي، والنسائي في «اليوم والليلة»، وابن خراش -وقال: عدل ثقة. قال: وكان حجاج ابن الشاعر يمدحه ويقول: هو من الأبدال-. انتهى. وابن خراش ممن يعتبر توثيقه، ويعض عليه بالنواجذ، ويتمسك به؛ لأنه نظير أبي حاتم، وابن معين في ذلك. قال الإمام الذهبي أثناء كلامه على مراتب المجرحين في «الموقظة»: فالحاد فيهم: يحيى بن سعيد، وابن معين، وأبو حاتم، وابن خراش، وغيرهم. . . انتهى.

والوليد بن القاسم وثقه أحمد، وتكلم فيه ابن معين وابن حبان.

لكن إذا حدث عن يزيد بن كيسان -كما هنا- فحديثه حسن، قاله الإمام أحمد، كما في ترجمته، في «تهذيب التهذيب». ويزيد بن كيسان، هو اليشكري، صدوق. وشيخه في هذا الحديث أبو حازم، هو سلمان الأشجعي، تابعي ثقة. وعليه فالحديث حسن، وقد أورده الإمام مقبل في «جامعه الصحيح» (٤٦٦٣).

**وقوله تبارك وتعالى:** ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] نظير قوله ﷺ في الحديث المذكور: «**ما قال عبد: لا إله إلا الله قط مخلصًا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش**». فالشهادة بكلمة التوحيد إذا قرنت بالإخلاص كانت من أطيب الكلم، واستحقت أن تفتح لها أبواب السماء، وتهيأت بذلك لقبول الله إياها من قائلها. ولا يقبل الله إلا ما كان طيبًا، وابتغي به وجهه؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ . فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

ثم اعلم -رحمك الله- أن شهادة العبد بالكلمة الطيبة لا يرفعه إلى الله إلا تصديقها بالعمل الصالح، ولذا قال الله تعالى في الشطر الثاني من الآية السابقة: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: ثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ . قال: قال الحسن وقتادة: لا يقبل الله قولًا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه. انتهى. وسند الأثر إلى قتادة حسن.

وفي هذا المعنى قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى»

(٧/ ٢٩٣-٢٩٤): قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه، كما رواه عباس الدوري: حدثنا حجاج، حدثنا أبو عبيدة الناجي عن الحسن قال: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال. من قال حسنًا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله، ومن قال حسنًا وعمل صالحًا رفعه العمل؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ورواه ابن بطة من الوجهين. وقوله: «ليس الإيمان بالتمني» يعني: الكلام، وقوله: «بالتحلي» يعني: أن يصير حلية ظاهرة له، فيظهره من غير حقيقة من قلبه، ومعناه: ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيمانًا وإذا لم يكن عمل، كذب أن في قلبه إيمانًا؛ لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر. وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم. انتهى. وهذا يمت بصلة وُثْقَى بالشرط الآتي لكلمة الإخلاص:

* * *

# الشرط الرابع

**ودليل الصدق:** قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

**وقوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة].

**ومن السنة:** ما ثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، صادقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**».

---

**قوله: (الصدق)** قال ابن فارس في «المقاييس»، مادة (صَدَقَ): أصل يدل على قوة في الشيء قولًا وغيره. من ذلك الصدق: خلاف الكذب. انتهى المراد. قال الإمام ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٢١): الإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر. انتهى. ثم ذكر عدة تعريفات للصدق في الشرع، أحسنها وأجمعها ما قدمه، وذكره بصيغة الجزم؛ حيث قال (٢/ ٢٢٤): قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل. انتهى.

فعلم أن الصادق من صدق إخلاصه بالعمل، قال ابن القيم في

«المدارج» (١/ ١١٦): ومقام الصدق جامع للإخلاص والعزم -أي؛ العزم على الفعل- فباجتماعهما يصح له مقام الصدق. انتهى. وقال -رَحِمَهُ اللَّهُ- (٢/ ٢٢١): أخبر تعالى عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]، وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر]، فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله. فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد. والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صِدِّيقيَّته. ولذلك كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: ذروة سنام الصِّدِّيقيَّة، سمي الصديق على

الإطلاق، والصِّدِّيق أبلغ من الصَّدُوق، والصَّدُوق أبلغ من الصادق. فأعلى مراتب الصِّدْق: مرتبة الصِّديقِيَّة، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل. انتهى المراد. **قوله: (قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾)** وجه الاستدلال بهذه الآية على شرط الصدق في كلمة التوحيد بالنظر إلى ما ذكره ابن فارس بعد ما سبق؛ حيث قال: وأصل هذا من قولهم شيءٌ صِدْقٌ، أي: صلب. انتهى، فظهر أن الصدق يتضمن معنى الصلابة. فمن كان صادقًا في نطقه بكلمة التوحيد لزم أن يكون في تمسكه بدينه صلابة؛ وإن ابتلي، وافتتن، بأنواع الابتلاء. فصحة تلفظ العبد بكلمة التوحيد متوقف على صدقه المتضمن لصلابة دينه.

ولما كان الأمر كذلك كان أشد الناس بلاء أقواهم صدقًا، قال الإمام ابن ماجه: ثنا يوسف بن حماد المعني، ويحيى بن درست، قالا: ثنا حماد بن زيد، عن عاصم، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة**». أورد هذا الحديث الشيخ مقبل في «جامعه»، وحسنه. فتأمل قوله ﷺ في هذا الحديث: «**فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه**»، واستحضر ما يتضمنه

الصدق من معنى الصلابة في الدين، يتجلى لك وجه استدلال الشيخ ابن عبد الوهاب بهذه الآية. وبالله التوفيق.

وإذا اشتد تمسك الصادق بدينه كلما اشتد عليه البلاء دل ذلك على قوة صدقه في نطقه بكلمة التوحيد. وهذا بخلاف المنافق الذي يتفوه بها، وكلما اشتد عليه البلاء ضعف صدقه، وتفلت تمسكه بالدين.

قوله: (قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ) قال الإمام الشنقيطي في «الأضواء»: والاستفهام في قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ للإنكار. والمعنى: أن الناس لا يتركون دون فتنة: أي ابتلاء واختبار، لأجل قولهم: آمنا، بل إذا قالوا آمنا فتنوا: أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء، حتى يتبين بذلك الصادق في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ من غير الصادق -هكذا في الطبعة التي بين يدي، ولعل صوابه: وغير الصادق-. انتهى.

ففي هذه الآية دليل على أن الله ﷻ يمتحن عبده المؤمن الموحد؛ ليبين صدقه في تلفظه بكلمة التوحيد. فلا يصبر على الفتن إلا المؤمن الصادق في شهادته. وأما الكاذب فيها فإنه لا يصبر، بل ربما ارتد بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

وأما المؤمن فإنه كلما ابتلي صبر لله واحتسب، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ

وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [البقرة]، ويزداد بذلك إيمانًا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾ [الأحزاب].

والابتلاء على المؤمن في هذه الدنيا مستمر، أخرج الشيخان عن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تسرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج** - في رواية: **حتى يأتيه أجله**-». فإذا جاء أجله استراح حينئذ، أخرج الشيخان عن أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه مر عليه بجنازة فقال: «**مستريح ومستراح منه**» فقالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**».

لكن مع استمرار البلاء على المؤمن، فإن الله رحيم به؛ فلا يبتليه بأكثر مما يطيقه، وفي الحديث السابق: «**وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه**». فكما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، وكان خيرًا له**»، أخرجه مسلم، عن صهيب رضي الله عنه.

هكذا أمر المؤمن في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه يفوز بعظم الجزاء، ويعوض ما فاته، ونقص له، من لذات الدنيا أوفر ما يكون. قال ابن القيم كما في «فوائد الفوائد» (ص ٨٦): فالطالب الصادق في طلبه كلما

خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته، وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله في أفراح آخرته. انتهى.

فما يحصل من النقص على المؤمن بسبب الابتلاء عوض ذلك في الآخرة. وأما ما يحصل من ذلك على الكافر فإنه فاته في دنياه، ولا يعوض عنه شيئًا في الآخرة. ولهذا المعنى كان الابتلاء على المؤمن تَمْحيصًا، وعلى الكافر مَحْقًا، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران]. قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فإنهم إذا ظفروا وبغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم. انتهى.

قوله: (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾) قال ابن جرير الطبري في تفسيره: والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قيله: آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه، ليعلم صدقه من كذبه. انتهى. قال الإمام الشنقيطي في تفسير سورة: محمد، الآية: ٣١: وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، قد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي

كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فقلنا في ذلك: إنه تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون. وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه بقوله -جل وعلا-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]؛ فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ بعد قوله: ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئًا لم يكن عالمًا به سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار. وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه. ومعنى إلا لنعلم أي علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالمًا به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى، فهو عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى. انتهى باختصار.

قوله: (وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ ) وكأن المصنف أشار بهذه الآيات إلى ما استفيد من كلام ابن القيم السابق الذكر: أن الصدق، الذي هو أساس الإيمان منافٍ للكذب، الذي هو أساس النفاق. قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٧/ ١٨٢-١٨٣): والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق، والمنافقين بالكذب -من ذلك الآيات هنا؛ حيث قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟

يَكۡذِبُونَ ﴿١٦٧﴾ -؛ لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما: آمنا، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران]. انتهى.

فكل من المؤمنين والمنافقين يقولون: آمنا. والفرق بين الطائفتين بالصدق في هذا القول؛ حيث يكون العمل موافقًا للشهادة بكلمة التوحيد. فالمؤمنون يقولونها امتثالا لأمر ربهم بذلك، قال شيخ الإسلام بعد ما سبق: فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ دليل على أنهم قالوا: آمنا ولا نفرق؛ ولهذا قال: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ فجمعوا بين قولهم: آمنا وبين قولهم: سمعنا وأطعنا. انتهى المراد. فالمؤمنون يقولون كلمة التوحيد، وهم صادقون فيها، ولذا يظهر ذلك في أعمالهم، حيث إنها موافقة لقولهم: سمعنا وأطعنا.

قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٢٥): فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه. فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها. ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينما هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثم في غزو، ثم في حج، ثم في إحسان للخلق بالتعليم، وغيره من أنواع النفع، ثم في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم -إن أمكن- إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع. فهو في تفرق دائم لله، وجمعية على الله. لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع. ولا يتقيد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره، وزي معين لا يلبس سواه، وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها، مع فضل غيرها عليها، أو هي أعلى من غيرها في الدرجة.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإيثار مرادها، والإشارة إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم، فضلًا عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى. فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزيه وقيده وإشارته -ولو إلى أفضل منه- استهجن ذلك، ورآه نقصًا، وسقوطًا من أعين الناس، وانحطاطًا لرتبته عندهم، وهو قد انحط وسقط من عين الله.

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده: أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه. وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه،

العامل على عمارة نفسه ومرتبته، وهذا هو النفاق بعينه. ولو كان عاملًا على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه، ولمَا بَالَى أيَّ ثوبٍ لبس، ولا أيَّ عملٍ عمل، إذا كان على مراد الله من العبد. انتهى.

فالمنافقون لما كان قولهم: آمنا مخالفًا لما في قلوبهم ظهر ذلك في أعمالهم. فإن عملوا فلا يعملون لله، وإنما لمصلحة دنيوية: كحقن الدماء، أو الحفاظ على الأولاد والذرية، أو الحرص على المنصب أو الجاه. . . ويظهر عدم صدقهم في تلفظهم بالإيمان عند الابتلاء، والفتن، كما سبق. قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٧/ ٦٢٠): ما يستقر في القلب من إيمان ونفاق، لابد أن يظهر موجبه في القول والعمل، كما قال بعض السلف: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وقد قال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]. وأساس النفاق الذي بني عليه وأن المنافق لابد أن تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه؛ ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة]، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون]. انتهى.

والحاصل أن الصدق منافٍ للكذب، ولابد أن يظهر أثر الصدق،

وذلك العمل الصالح -إن لم يمنع من ذلك مانع-. وأما من تفوه بكلمة التوحيد، ولم يعمل على وفق ما نطق به -مع عدم المانع-، دل ذلك على عدم صدقه في نطقه، بل دل ذلك على كذبه.

**قوله:** (**ومن السُّنة: ما ثبت في الصحيحين عن معاذ بن جبل** رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، صادقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**») أصل هذا الحديث متفق عليه، وليس عند مسلم في هذا الحديث ذكر الصدق. أفاد ذلك الإمام القرطبي في «المفهم»؛ حيث قال في شرح الحديث (٢٦): (قوله في حديث معاذ: «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا حرمه الله على النار**») هكذا وقع هذا الحديث في كتاب مسلم عن جميع رواته في ما علمته، وقد زاد البخاري فيه: «**صدقًا من قلبه**» وهي زيادة حسنة تنص على صحة ما تضمنته الترجمة المتقدمة. انتهى.

وبهذا يتبين أن المصنف ذكر الحديث هنا بالمعنى، فقال: «صادقًا» بدل: «صدْقًا». فيكون حال الشاهد بكلمة التوحيد، في لفظ الحديث في «صحيح البخاري»: «صدقًا»، وهو مصدر. والمصدر جامد، فلابد من تأويله بمشتق؛ إذ الأصل في الحال أن تأتي مشتقة. وكأن المصنف أراد برواية الحديث بالمعنى أن يبين هذا التأويل، فقال: «صادقًا». وقد جاء التصريح بهذا التأويل في حديث آخر ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٣٦-٢٣٧)؛ حيث قال: وفي «مسند البزار» عن

عياض الأنصاري، عن النبي ﷺ قال: «**إن لا إله ألا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقًا، أدخله الله بها الجنة**. . .» الحديث. لكن ينظر في ثبوته!

ثم تبين لي ما هو أظهر من هذا، وهو أن المصنف أراد بالرواية المذكورة ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢١٩٠٢): ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يشهد أن لا إله** -هكذا في الطبعة التي بين يدي، ولعل سقط قوله: «**إلا الله**»؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا بها- **وأن محمدًا رسول الله صادقًا من قلبه دخل الجنة**» قال شعبة: لم أسأل قتادة أنه سمعه عن أنس. قال أبو عبد الله: هذا إسناد صحيح، وكون شعبة لم يسأل قتادة عن سماعه من أنس رضي الله عنه لا يضر، فقد أثبت سماعه منه الأئمة. وعنعنة قتادة عن أنس رضي الله عنه في «صحيح البخاري».

**قوله:** («**وأن محمدًا عبده ورسوله**») قرن في هذا الحديث مع الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة. ووجه ذلك أن مطلوب الصادق في شهادته بكلمة التوحيد إرضاء ربه، ولا يمكن ذلك إلا بفعل ما يحبه الله. والطريق الوحيد لمعرفة ما يحبه الله اتباع ما بلغه الرسول ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى. فإن شهادة العبد برسالة محمد ﷺ تتضمن ذلك؛ لأنها شهادة بأن محمدًا ﷺ مرسل من الله لإبلاغ رسالته. قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٣٢): فإن العبد إذا صدق الله: رضي الله بعمله، وحاله، ويقينه، وقصده، لَا أنَّ رضا الله نفس الصدق؛ وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه

سبحانه. ولكن من أين يعلم العبد رضاه؟ فمن ههنا كان الصادق مضطرًّا -أشد ضرورة- إلى متابعة الأمر، والتسليم للرسول ﷺ، في ظاهره، وباطنه، والاقتداء به، والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله -عز وجل-، فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك. وما عدا هذا فقوت النفس، ومجرد حظها، واتباع أهوائها. وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان. فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملًا، أو يرضى به، حتى يكون على متابعة رسوله ﷺ، خالصًا لوجهه سبحانه. انتهى.

قوله: («**صادقًا من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار**») قال الحافظ ابن رجب كما في «مجموع رسائله» (٢/ ٣٨١): فأما من دخل النار من أهل هذه الكلمة، فلقلة صدقه في قولها، فإن هذه الكلمة إذا صدقت في قولها طهرت القلب من سوى الله، ومتى بقي في القلب أثر لما سوى الله، فمن قلة صدقه في قولها. انتهى. فعلم أن الصدق يخلص قلب صاحبه من محبة غير الله.

فالصادق حقًّا في نطقه بكلمة التوحيد لا يحب إلا الله، ولا يحب إلا ما يحبه الله، ومن هنا علم أن معنى الصدق الوفاء لله بالعمل؛ إذ المحب لمن يحب مطيع. قال الحافظ ابن رجب كما في «مجموع رسائله» (٢/ ٣٧٣): قول: «لا إله إلا الله» تقتضي أن لا يحب سواه، فإن الإله هو الذي يطاع، محبة وخوفًا ورجاء، ومن تمام محبته محبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، فمن أحب شيئًا مما يكرهه الله، أو كره شيئًا مما

يحبه الله لم يكمل توحيده ولا صدقه في قول: لا إله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما يحبه الله، وما أحبه مما يكرهه. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمد]. انتهى. ومن هنا تظهر مناسبة ذكر المصنف لشرط المحبة بعد شرط الصدق.

* * *

## الشرط الخامس

ودليل المحبة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن السُّنة: ما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**».

---

قال ابن القيم في «المدارج» (١/ ٦٦) و (٣/ ٨ و ٢٤)، أثناء كلامه على المحبة: هي روح الإيمان، والأعمال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله؛ فإنها روح كل عمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي

حقيقة الإخلاص. بل هي نفس الإسلام؛ فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة. بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبًّا وذُلًّا، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعة له؛ بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذل له. وأصل «التأله» التعبد، و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق مُعَبَّد أي مذلل. والتعبد التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له، لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا خاضعًا.

ومن ههنا كان المنكرون -كالجهمية- محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبًا لهم منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالمين وخالقًا لهم. فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه. انتهى باختصار وتصرف. فظهر أن من لا محبة له لله، ولا لما يحبه الله ويرضاه، لا تصح شهادته بكلمة التوحيد. واتضح حينئذ أن المحبة شرط في صحة الشهادة بكلمة التوحيد؛ فإن المحبة حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله.

**قوله:** (**المحبة**) قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٠-١١): لا تحد

المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها.

وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء: أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب -بفتح المهملة والموحدة- الأسنان. الثاني: العلو والظهور. ومنه حبب الماء -بالفتح فيهما- وحبابه -بضم أوله-، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. الثالث: اللزوم والثبات. ومنه حب البعير وأحب، إذا برك ولم يقم. الرابع: اللب. ومنه حبة القلب للبه وداخله. ومنه الحبة لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه. الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه حب الماء -بكسر أوله- للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثبوت أيضًا.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة. فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه. ولإعطاء المحب محبوبه لبه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه. ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة. انتهى المراد.

قوله: (قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾) قال شيخ الإسلام في «مجموعة

الفتاوى» (١٠/ ٥٦): فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة. والعبادة -كما سبق من كلام ابن القيم أيضًا- تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودًا، والمعظم الذي لا يحب، لا يكون معبودًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] فبين -سبحانه- أن المشركين بربهم، الذين يتخذون من دون الله أندادًا، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم لله ولأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم؛ وأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب. انتهى باختصار.

قوله: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾) قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٩): وفي تقدير الآية قولان: أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله. والثاني: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾. فإن فيها قولين: أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم

محبة الله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا. والثاني: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يرجح القول الأول، ويقول إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له. انتهى.

**قال ابن القيم في «روضة المحبين» (ص ٢٩٢-٢٩٣):** والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحدًا. ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما، كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه. وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان؛ فليس الذي يحب لذاته إلا الإله الحق الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه.

وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعدد، ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه، ولا يشركه معه في الحب. فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته، وأحبهن إليه عائشة، وكان يحب أباها، ويحب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبه كله لله، وقُوَى حُبِّه جميعُها منصرفةٌ إليه سبحانه.

**فإن المحبة ثلاثة أقسام:** محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه. فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها؛ فإن محبة

الحبيب تقتضي محبة ما يحب، ومحبة ما يعين على حبه، ويوصل إلى رضاه وقربه. وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وأصل الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة؛ فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض. وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله؛ فوالوا عليها، وعادوا عليها، وتألهوها، وقالوا: هذه آلهة صغار تقربنا إلى الإله الأعظم.

ففرق بين محبة الله أصلًا والمحبة له تبعًا والمحبة معه شركًا. وعليك بتحقيق هذا الموضع؛ فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك!

فلله حق من المحبة لا يشركه فيه غيره. وأظلم الظلم وضع تلك المحبة في غير موضعها، والتشريك بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى! انتهى المراد.

فتبين أن الشرك الذي وقع فيه المشركون شرك في المحبة؛ حيث لم يخلصوا محبتهم لله وحده، بل أشركوا فيها معه غيره. والشرك في المحبة يستلزم الشرك في العبادة؛ إذ العبادة متضمنة لأصلين: غاية

الحب وغاية الذل. فمن أشرك في محبة الله أشرك في عبادته، ونقض بذلك توحيده. ومن هنا اتضح اشتراط المحبة لصحة الشهادة بكلمة التوحيد، وفهم استدلال المصنف بهذه الآية على هذا الشرط.

ولهذا كان حقيقة إنكار الجهمية محبة العبد لربه جحدًا لتوحيد الإلهية. قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٦٦): وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين، زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة. انتهى. وحذت الأشاعرة حذو الجهمية في هذا الباب، أفاده الشيخ محمد الجامي في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٦٩-٧٠)؛ حيث قال: الله يحب عباده الصالحين، وهم يحبون الله، هذه المحبة العظيمة نفتها الأشاعرة! لست أدري كيف هي قلوبهم عندما يدعي الأشعري بأن الله لا يحب ولا يحب، ويتفلسف فيقول: ما العلاقة بين العبد وبين الرب حتى يحب فيحب؟!انتهى باختصار.

فانظر شبهة الجهمية، هل ترى من فرق بينها وبين التي ذكرتها الأشاعرة؟! لا فرق، بل ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]. ويكفي في رد ما زعمه القوم حكايته.

وبين شيخ الإسلام، بعد ما سبق نقله عنه، أن حقيقة إنكار محبة العبد لربه جحد لتوحيد الإلهية، فقال في (١٠/ ٧٤): وأما قولهم: إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له. . . فهذا الكلام مجمل، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من

المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا أيضًا حق، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محبًّا عابدًا والآخر معبودًا محبوبًا فهذا هو رأس المسألة، فالاحتجاج به مصادرة على المطلوب ويكفي في ذلك المنع.

**ثم يقال:** بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق، الذي لا إله غيره، الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض. وحقيقة قول هؤلاء جحد كون الله معبودًا في الحقيقة. انتهى المراد.

**قوله:** (وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ ) لا يزال المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - يقرر ما دلت عليه الآية السابقة من اشتراط محبة الله وحده لصحة الشهادة بكلمة التوحيد. وذلك لأن الله يخبر في هذه الآية: أن من ارتد عن دينه الحق إلى الكفر والشرك فإنه سبحانه وتعالى قادر على خلق قوم آخرين ليسوا كذلك، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد]. بل يكونوا خيرًا من المرتدين قطعًا، بدليل أن الله يحبهم، حيث قال: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ﴾. وما تنال محبة الله إلا بالتمسك بدينه وطاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي

سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴿٤﴾﴾ [الصف]، وإلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى. . .

وهم ﴿يُحِبُّونَهُۥ﴾ لذاته سبحانه وتعالى، ويحبون ما يحب، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]. ويحبون أيضًا ما أعد لهم من النعيم المقيم، وقد أثنى عليهم بسبب ذلك، فقال -عز من قائل-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]. وذم من رغب في الدنيا، وترك الرغبة في الآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة]...

وعليه؛ ففي الآية التي ذكرها المصنف دلالة واضحة على أن المرتدين لا يحبون الله، ولا يحبون ما يحب الله. واستلزم ذلك أن المؤمنين على العكس من ذلك. فتبين بهذه الآية أن العبد لا يكون مؤمنًا بمجرد تلفظه بكلمة التوحيد، بل مما يشترط لذلك أيضا محبته لربه سبحانه وتعالى، ومحبته لما يحبه ربه.

**قوله:** (﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ) قد سبق أن ذكرنا سبب إنكار الجهمية محبة الله لعباده، وإنكار محبتهم له سبحانه وتعالى. ولما كان ظاهر القرآن صريحًا في الرد عليهم، لجأوا لترويج بضاعتهم الكاسدة إلى تحريف النصوص. قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ١٨-١٩): فأولوا نصوص محبة العباد له على محبة طاعته

وعبادته، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب. والثواب المنفصل عندهم هو المحبوب لذاته، والرب تعالى محبوب لغيره حب الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم، وإعطائهم الثواب. وربما أولوها بثنائه عليهم، ومدحه لهم، ونحو ذلك. وربما أولوها بإرادته لذلك. فتارة يؤولونها بالمفعول المنفصل، وتارة يؤولونها بنفس الإرادة. ويقولون: الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية سميت محبة. انتهى المراد. وتأويل محبة الله لعباده بالإرادة جاء أيضًا عن الأشاعرة، قال الشيخ محمد الجامي في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٧٢-٧٣): فلا نقول: المراد بالمحبة إرادة الإحسان وإرادة الإنعام كما تقول الأشاعرة. انتهى.

وأما تأويلهم محبة العباد لربهم بمحبة طاعته، فقد رده شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٦٩-٧١)، حيث قال: فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه؛ إذ التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة.

وكذلك العبادة والطاعة، إذا قيل في المطاع المعبود: إن هذا يُحَبّ طاعتُه وعبادتُه، فإن محبته ذلك تبع لمحبته، وإلا فمن لا يُحَبُّ لا يُحَبُّ طاعتُه وعبادتُه. ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع

عقوبة، فإنه يكون معاوضًا له أو مفتديًا منه، لا يكون محبًّا له. ولا يقال: إن هذا يحبه، ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته؛ فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة، فإن ذلك يقتضي أن يعبر بلفظين: محبة العوض والسلامة عن محبة العمل. أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض، ألا ترى أن من استأجر أجيرًا بعوض لا يقال: إن الأجير يحبه بمجرد ذلك. فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المخلوقة من غير أن يكون ربهم محبوبًا أصلًا.

وأيضًا، فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريرًا، أو من باب عطف الخاص على العام، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد. انتهى باختصار.

وأما تأويلهم محبة الله بالإحسان إلى العباد، فإنه ظاهر السقوط؛ لأنه يفهم التلازم بين الإحسان والمحبة، والأدلة تبطل ذلك.

فقد بين -تبارك وتعالى- في كتابه العزيز أنه أحسن إلى قارون، حيث قال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾، إلى قوله تعالى مصرحًا

بإحسانه إليه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. ثم صرح -سبحانه وتعالى- بعد ذلك أنه لا يحبه لفساده في الأرض، فقال -عز من قائل-: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص].

فهذه الآيات صريحة في إحسان الله إلى قارون، كما أنها صريحة في عدم محبته سبحانه إياه. وهذا يدل على بطلان التلازم بين محبة الله لعبده وإحسانه إليه، وحينئذ يتبين أن تأويل محبة الله لعبده بإحسانه إليه تأويل لا ينهض.

وأما تأويل محبة الله بإعطائه عبده الثواب فإنه مثله في السقوط، لقوله ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يجزى بها**». أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه. وهذا الحديث يدل على أن الله يثيب الكافر ما عمله من الحسنات في الدنيا أوفر ما يكون، حتى إذا جاء يوم القيامة لم يجده شيئًا.

**وهل يقول قائل**: هذه الإثابة تدل على محبة الله للكافر؟ كلا! بل الأدلة دالة على العكس من ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة]. قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: والله لا يحب كل مُصرٍّ على كفر بربه، مقيم عليه. انتهى.

فسقط تأويل محبة الله بإثابته العبد. فالله لكمال عدله لا يظلم أحدًا،

فمن عمل خيرًا أثيب عليه. فالمؤمن يعطى بسبب عمله في الدنيا ويجزى عليه في الآخرة. وأما الكافر -وإن كان لا يحبه الله- فإنه تعالى يعطيه ثواب عمله في الدنيا مُوَفِّرًا، وليس له في الآخرة من نصيب. فتبين بهذا أن لا تلازم بين إثابة الله عبده وبين محبته إياه!

وأما تأويل محبة الله بثنائه على عبده، ومدحه له، فإن هذا يدل على جهل قائله بمعنى هذه الألفاظ. فإن المدح لا يلزم منه محبة المادح للممدوح، ولذا قد يمدح المادح عدوه وهو لا يحبه. قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢٥): فالصواب في الفرق بين الحمد والمدح، أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير؛ إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته. فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد. انتهى.

وإذا كان لا يلزم من المدح المحبة فكذلك لا يلزم من الثناء المحبة. وذلك لأن أصل الثناء في اللغة العطف، ومنه أخذ معنى الثناء على الغير؛ حيث تذكر محاسن الغير ويعطف عليها ذكر آخر لمحاسنه، فيتكرر ذلك. قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢٧): فإن الثناء مأخوذ من الثني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمثني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة. انتهى.

وعليه؛ فكل من الثناء والمدح لا يدل، ولا يلزم منه، محبة المادح للممدوح، ولا محبة المُثنِي للمثنى عليه. ألا تسمع إلى ما أخرجه

الشيخان في «صحيحيهما» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن أبا سفيان ابن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش. . . -وفيه أن أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: - ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. الحديث.

فهذا أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمدح رسول الله ﷺ بأنه ذو نسب، ويثني عليه بأنه لا يكذب، ولا يغدر، وأبو سفيان آنذاك مشرك عدو لرسول الله ﷺ. فهل يقال: إن هذا المدح والثناء من أبي سفيان يدل على محبته لرسول الله ﷺ، أو يلزم ذلك؟ لا! بل كان بينهما من العداوة ما يدل عليه ما في الحديث السابق من جواب أبي سفيان لهرقل حين سأله عن الحرب التي بينهما، فأجاب أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه.

ففي هذا دليل واضح على أنه لا يلزم من مدح المادح محبته للممدوح، كما أنه لا يلزم من ثناء المُثنِي محبته للمثنى عليه. وفي هذا إبطال لتأويل الجهمية محبة الله بالمدح والثناء!

وأما تأويل المحبة بالإرادة، فقد عللته الجهمية؛ بأن المحبة انفعال وتأثير عن العبد، والمخلوق لا يؤثر في الخالق. فلو أغضبه أو فعل ما يفرح به -أو ما يحبه- لكان المحْدَث قد أثر في القديم تلك الكيفيات وهذا محال. انتهى بتصرف يسير من «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٤٦٢).

وعللت الأشاعرة نفس التأويل بنظير هذا، قال الشيخ محمد الجامي في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٧٣): حولت الأشاعرة المحبة، أولوها بالإرادة بدعوى: أن هذه الصفة انفعال نفسي لا يليق بالله! انتهى باختصار.

فلو فعل العبد ما يحبه الله من الطاعات لكان هذا الفعل من العبد أثر محبة الخالق له، وتأثير المخلوق في الخالق محال. ولذا رأت الجهمية، والأشاعرة، لزوم تأويل المحبة بالإرادة. فقالوا: إن محبة الله لعبده لما يفعله من الطاعة إرادته سبحانه الإحسان إلى عبده، والإنعام عليه، . . .

وقد رد ابن القيم هذه الشبهة في «المدارج» (٢/ ٣٤٩) حيث قال: وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- يومًا، فقلت له: إذا كان الرب سبحانه يرضى بطاعة العبد، ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته، فهل يجوز أن يؤثر المحدث في القديم حُبًّا وبُغضًا وفَرَحًا وغير ذلك؟ فقال لي: الرب سبحانه هو الذي خلق أسباب الرضى والغضب والفرح، وإنما كانت بمشيئته وخلقه. فلم يكن ذلك التأثر من غيره بل من نفسه بنفسه. والممتنع أن يؤثر غيره فيه، فهذا محال. وأما أن يخلق هو أسبابًا ويشاءها ويقدرها تقتضي رضاه، ومحبته، وفرحه، وغضبه

فهذا ليس بمحال. فإن ذلك منه بدأ وإليه يعود. والله سبحانه أعلم. انتهى.

وزاد -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «الصواعق المرسلة» لهذا توضيحًا، فقال في (٤/ ١٤٦٢-١٤٦٤): وجواب هذه الشبهة من وجوه؛ أحدها: أن الله سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه. وكل ما في الكون من أعيان وأفعال وحوادث فهو بمشيئته وتكوينه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. قضيتان لا تخصيص فيهما بوجه من الوجوه. وكل ما يشاؤه فإنما يشاؤه بحكمة اقتضاها حمده ومجده؛ فحكمته البالغة أوجبت كل ما في الكون من الأسباب والمشيئات. فهو سبحانه خالق الأسباب التي ترضيه وتغضبه وتسخطه ويفرح بها. والأشياء التي يحبها ويكرهها، هو سبحانه خالق ذلك كله. فالمخلوق أعجز وأضعف أن يؤثر فيه سبحانه، بل هو الذي خلق ذلك كله على علمه بأنه يحب هذا ويرضى به، ويبغض هذا ويسخط، ويفرح بهذا؛ فما أثر غيره فيه بوجه.

**الثالث**: أن هذا يبطل محبته لطاعات المؤمنين، وبغضه لمعاصي المخالفين، وكراهته لظلم الظالمين إذا فعلوا ذلك. وهذا معلوم البطلان بالضرورة والعقل والفطرة الإنسانية واتفاق أهل الأديان كلهم وإطباق الرسل، بل هذا حقيقة دعوة الرسل بعد التوحيد.

**الرابع**: أن هذا ينتقض بإجابة دعواتهم وإغاثة لهفاتهم وسماع أصواتهم ورؤية حركاتهم وأفعالهم، فإن هذه كلها أمور متعلقة بأفعالهم، فما كان جوابك عنها في محل الإلزام فهو جواب منازعيك لك في هذا المقام. انتهى باختصار.

وأيضًا، قال الشيخ محمد الجامي في رد تأويل محبة الله بالإرادة (ص ٧٣): وتناقضوا، فالإرادة في حق المخلوق أيضًا من الانفعالات النفسية. انتهى. فكان قصد القوم من التأويل المذكور التنزيه، والفرار من التشبيه -ولا شك أنه قصد حسن-، لكن لما لم يسلكوا في ذلك سبيل الحق وقعوا في التشبيه من جهة أخرى، من حيث لم يشعروا!

فتبين أن السلامة في باب صفات الله سبيل أهل الحق، وإثبات ما أثبته الله لنفسه على الوجه اللائق به من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف. وهذا السبيل هو الذي دل عليه القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وهو السبيل الذي سلكه سلف الأمة الذين رضي الله عنهم نهجهم وسبيلهم، ففازوا واستراحوا. والحمد لله.

قوله: (﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ ) في هذه الآية ذكر الله لعباده المؤمنين أربع علامات يتميزون بها عن الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

قال ابن القيم، أثناء كلامه على هذه الآية، في «المدارج» (٢/ ٢٦٦-٢٦٧) و (٣/ ٢٠): فقد ذكر لهم أربع علامات. أحدها: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . قيل: معناه أرقاء، رحماء، مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عَدَّاه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل. وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول،

فالمؤمن ذلول.

**العلامة الثانية:** ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

**العلامة الثالثة:** الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

**العلامة الرابعة:** أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. انتهى بتصرف يسير.

**قوله:** (﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾) قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٥٧-٥٨): والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة. وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل المحبة الكاملة. فإن المحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك. انتهى المراد.

**قد يقول قائل:** لا يتصور أن يحب الله عبده، ويحب ما دل القرآن على أن عبده يكرهه؛ حيث قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟ والجواب عن هذا ما أفاده ابن القيم كما في

«فوائد الفوائد» (ص ١٤٣-١٤٤): فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده. ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده.

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول؛ فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه. بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه. فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه. فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن لتي تنزل به، فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته؛ بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها. فانظر إلى خبير بالفلاحة غرس جنة، وتعاهدها بالسقي والإصلاح. حتى أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها، ويقطع أغصانها؛ لعلمه أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها. فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها، أقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها؛ لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك. ثم يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت؛ بل يعطشها وقتًا ويسقيها وقتًا، ولا يترك الماء عليها دائمًا، وإن

كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى الأوراق فيلقي عنها كثيرًا منها؛ لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها -كما في شجر العنب ونحوه-.

فهو يقطع أعضاءها بالحديد، ويلقي عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عين مصلحتها. فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان، لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها! وإنما هو عين مصلحتها.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين، الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من أن لا ينزله بهم، نظرًا منه لهم وإحسانًا إليهم ولطفًا بهم. ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملًا. لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا. فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فلم يتهموه في شيء من أحكامه. وخفي ذلك على الجهال به وبأسمائه وصفاته، فنازعوه تدبيره، وقدحوا في حكمته، ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا. والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة، سكن في الدنيا في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة؛ فإنه لا يزال راضيًا عن ربه. والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين؛ فإنه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا

بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى. فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك ألبته، كما قال ﷺ في الدعاء المشهور: «**اللهم! إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك**» الحديث.

والمقصود قوله: «**عدل فيّ قضاؤك**»، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده، من عقوبة أو ألم وسبب ذلك، فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبب، وهو عدل في هذا القضاء، وهذا القضاء خير للمؤمن. انتهى باختصار.

**قوله:** (﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾) قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٦١): والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه؛ فإن الملام على ذلك كثير. انتهى المراد. قال ابن القيم كما في «فوائد الفوائد» (ص ١٥٩-١٦٠): وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه. وهذا يحصل لكل أحد؛ فإن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له من أن يعيش مع الناس. والناس لهم إرادات وتصورات، يطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه

وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم.

فالواجب ما في حديث عائشة الذي بعثت به إلى معاوية -ويروى موقوفًا ومرفوعًا-: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس**»، وفي لفظ: «. . . **رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا**»، وفي لفظ: «**عاد حامده من الناس ذامًّا**».

وهذا يجري فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم.

فمن هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم، ثم تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؛ كما جرى للرسل وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين في هذه الأمة ومن ابتلي من علمائها وعُبَّادِهَا وتُجَّارها وولاتها. انتهى المراد.

فمن ترك ما أمر الله به مخافة لوم الناس، يقال له: ارجع إلى شرط الإخلاص من هذا الشرح وما بعده، وافهمه جيدًا حتى تتقنه؛ فإنك إلى حد الآن ما استفدت من هذا الشرح شيئًا! فإن كنت تتأثر بما يقوله الناس، حتى تترك ما أمرك الله به، فهذا دليل على أن الأعمال التي تقوم بها لم تقم بها لوجه الله، وإنما تقوم بها لإرضاء الناس! فمتى رضوا عنك قمت بها، ومتى لاموك عليها تركتها. وهذه مصيبة عظيمة قد ابتلي بها كثير من المسلمين. فإنا لله، وإنا إليه راجعون.

**قوله:** (عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»)

هذا الحديث أخرجه الشيخان في «صحيحيهما». واستظهر شيخ الإسلام المناسبة بين هذه الخصال الثلاثة، فقال في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٢٠٥): أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له. فمن أحب شيئًا أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك.

فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار. انتهى باختصار.

**قوله:** («**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**») قال الحافظ ابن رجب في «الفتح»، شرح هذا الحديث (١٦): وقد خرجه مسلم وعنده في رواية: «**فقد وجد طعم الإيمان**». فهذه الثلاث خصال من أعلى

خصال الإيمان، فمن كملها فقد وجد حلاوة الإيمان وطَعِمَ طعمه. فالإيمان له حلاوة وطَعْمٌ يذاق بالقلوب كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم؛ فإن الإيمان هو غذاء القلوب وقوتها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقوتها.

وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته، فإذا سقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السقم عليه. فكذلك القلب إذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ، ومتى مرض وسقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي. ومن هنا قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، لأنه لو كمل إيمانه لوجد حلاوة الإيمان فاستغنى بها عن استحلاء المعاصي. وقال ذو النون: كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب. انتهى. وفي هذا المعنى قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: قال العلماء -رحمهم الله-: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضا الله، وإيثار ذلك على عرض الدنيا ومحبة العبد ربه -سبحانه وتعالى- بفعل طاعته وترك مخالفته. انتهى.

**قوله:** («**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**») قال الحافظ ابن رجب: ومحبة الله تنشأ تارة من معرفته، وكمال معرفته تحصل من معرفة أسمائه وصفاته وأفعاله الباهرة، والتفكير في مصنوعاته وما فيها

من الإتقان والحكم والعجائب؛ فإن ذلك كله يدل على كماله وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته. قال بعض السلف: من عرف الله أحبه، ومن أحبه أطاعه، فإن المحبة تقتضي الطاعة. انتهى باختصار. وقال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٨٥)، في هذا النوع من المحبة: محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته؛ إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل؛ ولهذا استحق أن يكون محمودًا على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء، والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة. انتهى.

**قال أبو عبد الله:** بل معرفة أسماء الله وصفاته، ومحبتها، والعناية بها بذكرها وكثرة ترددها، تورث محبة الله لعبده. ويدل عليه ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**». فانظر كيف نال هذا الصحابي رضي الله عنه محبة الله بسبب معرفته، وحفظه، وكثرة تردده لهذه السورة لما اشتملت عليها من أسماء الله وصفاته -جل وعلا-! ومحبة الله لعبده أعظم شأنًا من محبة العبد لربه، كما سيأتي بيانه من كلام ابن القيم.

ثم قال الحافظ ابن رجب، في الطريق الثانية التي منها تنشأ محبة الله: وتارة تنشأ من مطالعة النعم. انتهى.

وهذه الثانية هي محبة العامة، التي قال فيها شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٨٤): محبة لأجل إحسانه إلى عباده. وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. والله -سبحانه- هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة؛ إذ هو ميسر الوسائط، ومسبب الأسباب. ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه. وكذلك كل من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه. وهذا ليس بمذموم بل محمود. والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه. انتهى باختصار.

ثم قال الحافظ ابن رجب: ومحبة الله على درجتين: إحداهما: فرض، وهي المحبة المقتضية لفعل أوامره الواجبة، والانتهاء عن زواجره المحرمة، والصبر على مقدوراته المؤلمة، فهذا القدر لابد منه في محبة الله. ومن لم تكن محبته على هذا الوجه فهو كاذب في دعوى محبة الله، كما قال بعض العارفين: من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده فهو كاذب.

فمن وقع في ارتكاب شيء من المحرمات، أو أخل بشيء من

فعل الواجبات، فلتقصيره في محبة الله؛ حيث قدم محبة نفسه وهواه على محبة الله، فإن محبة الله لو كملت لمنعت من الوقوع فيما يكرهه. وإنما يحصل الوقوع فيما يكرهه لنقص محبته الواجبة في القلوب، وتقديم هوى النفس على محبته، وبذلك ينقص الإيمان كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث.

**والدرجة الثانية من المحبة -وهي فضل مستحب-**: أن ترتقي المحبة من ذلك إلى التقرب بنوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق الشبهات والمكروهات، والرضا بالأقضية المؤلمات. انتهى.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ في ترجمة عروة بن الزبير، في «تهذيب التهذيب»: خرج عروة إلى الوليد برجله آكلة فقطعها، وسقط ابن له عن ظهر بيت له، فوقع تحت أرجل الدواب فوطئته، فقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، اللهم إن كنت أخذت لقد أعطيت، وإن كنت ابتليت لقد عافيت. انتهى.

**ثم قال الحافظ ابن رجب**: وأما محبة الرسول: فتنشأ عن معرفته، ومعرفة كماله، وأوصافه، وعظم ما جاء به. وينشأ ذلك في معرفة مُرْسِلِه وعظمته -كما سبق-؛ فإن محبة الله لا تتم إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رسوله، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. انتهى.

وقال -رَحِمَهُ اللَّهُ- كما في «مجموع رسائله» (٢/ ٣٧٤-٣٧٥): قال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فأحب الله

أن يجعل لحبه علمًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومن ها هنا يعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمدًا رسول الله؛ فإنه إذا علم أنه لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، ولا طريق إلى معرفة ما يحبه وما يكرهه إلا من جهة محمد، المبلغ عن الله ما يحبه وما يكرهه، فصارت محبة الله مستلزمة لمحبة رسوله ﷺ وتصديقه ومتابعته. انتهى.

ثم قال في «الفتح»، بعد ما سبق: ومحبة الرسول على درجتين أيضًا: إحداهما: فرض، وهي ما اقتضى طاعته في امتثال ما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، والرضا بذلك، وأن لا يجد في نفسه حرجًا مما جاء به ويسلم له تسليمًا، وأن لا يتلقى الهدى من غير مشكاته ولا يطلب شيئًا من الخير إلا مما جاء به.

**الدرجة الثانية:** فضل مندوب إليه، وهي: ما ارتقى بعد ذلك إلى اتباع سنته، وآدابه، وأخلاقه، والاقتداء به في هديه. . . انتهى.

وبحسب محبة الرسول ﷺ يكون اتباعه؛ فكل من أحب شيئًا كان له أطوع. وبحسب اتباعه ﷺ تكون محبة العبد لربه، لأن الله يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. فاتباع العبد للرسول ﷺ كلما قوي ازدادت طاعته لله، وزيادة الطاعة دليل زيادة محبة العبد لربه.

**قال ابن القيم في «المدارج» (٣/ ٣٣):** ثباتها -أي: محبة العبد لربه- إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله، وأقواله، وأخلاقه. فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة، وثباتها، وقوتها. وبحسب نقصانه

يكون نقصانها، كما تقدم: أن هذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معًا، ولا يتم الأمر إلا بهما. فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله. ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا. وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ. وارجع من حيث شئت فالتمس نورًا، فلست على شيء. وتأمل قوله﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، أي الشأن في أن الله يحبكم، لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ. انتهى.

**قوله:** («**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**») قال الحافظ ابن رجب: والحب في الله من أصول الإيمان وأعلى درجاته. وفيه: عن البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله وتبغض في الله**».

وإنما كانت هذه الخصلة تالية لما قبلها، لأن من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فقد صار حبه كله له، ويلزم من ذلك أن يكون بغضه لله وموالاته له ومعاداته له، وأن لا تبقى له بقية من نفسه وهواه، وذلك يستلزم محبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك، وكذلك من الأشخاص، ويلزم من ذلك معاملتهم بمقتضى الحب والبغض، فمن أحبه لله أكرمه وعامله بالعدل والفضل، ومن أبغضه لله أهانه بالعدل، ولهذا وصف الله المحبين له بأنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤]. فلا تتم محبة الله ورسوله إلا بمحبة أوليائه

وموالاتهم وبغض أعدائه ومعاداتهم. انتهى باختصار.

ومن هذا يتبين أن من ادعى محبة الله من المسلمين وهو يتزلف إلى الكفار، ويحبهم، ويعظمهم، ويجلهم، فقد انتقض فعله دعوته. إذ من أمحل المحال أن يجتمع في قلب محبة الله ومحبة أعدائه، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

قوله: («**أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**») كلما تمكن الإيمان في قلب العبد قوي ما يجد له من الحلاوة. وكلما ازداد هذا الوجد حلاوة ابتعد عن أدنى ما يخدش في إيمانه؛ لأن ذلك يضعف لذة حلاوة إيمانه.

وهذا المعنى هو الذي عبر عنه هرقل بقوله، تعليقًا على قول أبي سفيان: وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. أخرج الحديث الشيخان، واللفظ للبخاري.

قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (١٠/ ٦٤٨): فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير

عنه لمن لم يذقه. والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه، وإذا خالطت القلب لم يسخطه، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]. فأخبر -سبحانه- أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور؛ وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

واللذة أبدًا تتبع المحبة فمن أحب شيئًا ونال ما أحبه وجد اللذة به؛ فالذوق هو إدراك المحبوب اللذة الظاهرة، كالأكل مثلا: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم. وليس في الوجود ما يستحق أن يُحَبّ لذاته من كل وجه إلا الله تعالى. وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول ﷺ إنما يُحَبّ لأجل الله، ويُطَاع لأجل الله، ويُتْبَع لأجل الله.

والمقصود هنا أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:**

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». انتهى باختصار.

* * *

## الشرط السادس

**ودليل الانقياد:** ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء].

**ومن السُّنة:** قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**».

---

**قوله: (الانقياد)** الانقياد في اللغة مرادف للإسلام. قال ابن فارس، مادة (سلم): ومن الباب أيضًا الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يسلم من الإباء والامتناع. انتهى.

**قوله: (قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾)** أشار المصنف بهذه الآية إلى معنى الانقياد في الشرع؛ من حيث إن الإسلام متضمن للانقياد. قال شيخ الإسلام في «مجموعة الفتاوى» (٧/ ٦٣٥): لفظ «الإسلام» يستعمل على وجهين: متعديًا كقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]. ويستعمل لازمًا كقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة]. وهو يجمع معنيين: أحدهما الانقياد والاستسلام. والثاني: إخلاص ذلك وإفراده،

كقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، وعنوانه قول: لا إله إلا الله. انتهى باختصار.

إذا علم مما سبق أن عنوان الإسلام قولُ: لا إله إلا الله، وأن الإسلام متضمن للانقياد، علم أنه لا يصح إسلام العبد، ولا قوله: لا إله إلا الله إلا بالانقياد. فاتضح بهذا أن من شروط صحة الشهادة بكلمة التوحيد الانقياد، وسيأتي لهذا مزيد بيان.

والانقياد ينافي الكبر، الذي هو ركن من أركان الكفر. قال ابن القيم كما في «فوائد الفوائد»: (ص ٢٤٩): أركان الكفر أربعة الكبر والحسد والغضب والشهوة. فالكبر يمنعه الانقياد. انتهى المراد. ولهذا كان أول علامة دالة على انقياد العبد تركه الكبر عن ما جاء به الشرع. قال ابن القيم في «المدارج» (٢/ ٢٧٢): التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان. وذلك بثلاثة أشياء؛ الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

**فالأولى:** للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة. وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل، وعزلنا النقل؛ إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

**والثانية:** للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه. قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص: قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

**والثالثة:** للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد.

فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال، ولم يعبأُوا بالأمر.

**والرابعة:** للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين. إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله. انتهى.

**قوله: (ودليل الانقياد، ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ ، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ ، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾)** يبين المصنف بالآيتين الأوليين أن الإسلام يتضمن الانقياد، وأنه لا يصح إلا بالانقياد لما جاء به الشرع، كما سبق بيان وجهه. ويبني المصنف على هذه المقدمة استدلاله بالآية الثالثة على أن الانقياد شرط في صحة الشهادة بكلمة التوحيد.

وتقرير الدليل أن القرآن أشار إلى تفسير العروة الوثقى بـ:«لا إله إلا الله»، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ معناه الكفر بكل ما يعبد من دون الله، وهذا معنى «لا إله»، وقد سبق بيانه في أول الشرح. وقوله تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ -بعد ذكر الكفر بالطاغوت- معناه الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهذا معنى

«إلا الله». وعليه فمعنى هذين الجزأين من الآية معنى «لا إله إلا الله»، وتفسير لها، وقد سمى الله في آخر هذه الآية من أخذ بهذين الجزأين، وطبقهما، مستمسكًا بالعروة الوثقى. فاقتضى ذلك أن تكون العروة الوثقى هي «لا إله إلا الله».

وقد جاء هذا التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٢٤): ثنا عمرو بن عبد الله الأودي، وأخرجه ابن جرير في تفسير لقمان، الآية: ٢٢: ثنا ابن وكيع، كلاهما قالا: ثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي السوداء النهدي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ . قال: «لا إله إلا الله».

**قال أبو عبد الله:** إسناد ابن أبي حاتم لهذا الأثر صحيح. وأما ما قاله الحافظ في ترجمة جعفر بن أبي المغيرة من «تهذيب التهذيب»: قال ابن منده: ليس بالقوي في سعيد بن جبير. انتهى، فإنه لا يضر في روايته للأثر هنا.

وذلك أن ابن منده قال هذا القول عقب رواية جعفر لتفسير ابن عباس الكرسي بالعلم. قال صاحب «منهج الحافظ ابن منده في الحديث» (ص ٢٧٣): فقد ذكر في كتابه «الرد على الجهمية» من رواية مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كرسيه: موضع قدمه. ثم بين الاختلاف في رفعه ووقفه، وفي متنه -أيضًا- ومن جملة ذلك: أن جعفر بن أبي المغيرة رواه عن ابن جبير، عن ابن

عباس، قال: الكرسي: علمه. علق ابن منده على هذا اللفظ، فقال: «ولم يتابع عليه جعفر، وليس بالقوي في سعيد بن جبير». انتهى.

**قال أبو عبد الله:** الذي يظهر أن مراد ابن منده بهذا القول عقب هذا الأثر رواية جعفر لهذا الأثر خاصة، دون سائر مروياته عن ابن جبير، ويدل عليه قوله: «ولم يتابع عليه جعفر».

ولا يعكر على هذا قوله بعد: «وليس بالقوي في سعيد بن جبير»؛ لأنه لا يلزم من كونه ليس بالقوي في ابن جبير كونه ضعيفًا فيه.

**قال الإمام الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٢٨):** فلا يخفى على طالب العلم أن قوله: «فيه مناكير» ليس بمعنى منكر الحديث. وإذا عرفت هذا سهل عليك أن تفهم قول الذهبي: «... ويحيى ليس بالقوي». فإن ثمة فرقًا أيضًا بين قول الحافظ: «ليس بالقوي»، وقوله: «ليس بقوي»، فإن هذا ينفي عنه مطلق القوة، فهو يساوي قوله: «ضعيف»، وليس كذلك قوله الأول: «ليس بالقوي»، فإنه ينفي نوعًا خاصًّا من القوة، وهي قوة الحُفَّاظ الأثبات. وعليه؛ فلا منافاة بين قوله هذا وقوله المتقدم: «يحيى وإن كان ثقة؛ ففيه ضعف». انتهى.

وعليه فالذي ينفيه قول ابن منده: «ليس بالقوي» كون جعفر من الحفاظ الأثبات في ابن جبير، دون نفي كونه ثقة فيه. ويشير إلى هذا أن جعفرًا لازم ابن جبير، وروى عنه كثيرًا، كما يستفاد من قول أبي الشيخ في ترجمته من «تهذيب التهذيب»: دخل مكة أيام ابن عمر مع سعيد بن جبير. انتهى. وأصرح منه قول الذهبي في ترجمته من «الميزان»:

صاحب سعيد بن جبير. انتهى. فهذا يدل على أن لجعفر عناية بحديث ابن جبير وإن لم يكن من الحفاظ الأثبات فيه.

ثم ذكر الحافظ في ترجمته من «تهذيب التهذيب» ما نصه: وقع حديثه في «صحيح البخاري» ضمنًا، حيث قال في التيمم: وأَمَّ ابنُ عباس وهو متيمم. وهذا من رواية يحيى بن يحيى التميمي، عن جرير، عن أشعث، عن جعفر، عن سعيد ابن جبير. . . انتهى.

فهذا التعليق في «الصحيح» بصيغة الجزم يفيد تصحيح البخاري لأثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا يتضمن تصحيحه أيضًا لرواية جعفر عن ابن جبير. وقد صحح الحافظ ابن حجر أيضًا، إسناد هذا الأثر في «الفتح»؛ حيث قال: قوله (وأَمَّ ابن عباس وهو متيمم) وصله ابن أبي شيبة، والبيهقي، وغيرهما، وإسناده صحيح. انتهى. وهذا أيضًا يدل على تصحيح الحافظ رواية جعفر عن ابن جبير.

ويؤيد احتجاج رواية جعفر عن ابن جبير قول الترمذي في «سننه» عقب حديث (٢٩٨٠) من رواية جعفر عن ابن جبير: هذا حديث حسن غريب. انتهى. ومراد الترمذي بهذه العبارة -كما قاله الإمام الألباني وغيره- أنه حسن لذاته. وهذا يدل على تحسين واحتجاج الترمذي برواية جعفر عن ابن جبير بذاتها.

وحاصل الأمر أن جعفر بن أبي المغيرة ثقة في ابن جبير، إلا أن يأتي ما يدل على خطإ ما رواه عنه فَيُرَدّ. وحينئذ فأثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير العروة الوثقى بكلمة التوحيد صحيح، ما دام لم يأت ما يدل

على خطإ جعفر فيه.

فإذا تبين هذا التفسير، وتبين أن فعل الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ يتضمن الانقياد؛ تبين أن الانقياد شرط لحصول جوابه، الذي هو الاستمساك بالعروة الوثقى: «لا إله إلا الله». فظهر استدلال المصنف بالآية الثالثة على اشتراط الانقياد لصحة الشهادة بكلمة التوحيد.

قوله: (قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ ) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فَيُسَلِّموا لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. انتهى.

قال شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (ص ٥٢١): الإيمان بحسب كلام الله ورسالته يتضمن إخباره، وأوامره. فيصدق القلب إخباره تصديقًا يوجب حالًا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول. وينقاد لأمره، ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل. ولا يكون مؤمنًا إلا بمجموع الأمرين.

فمتى ترك الانقياد كان مستكبرًا فصار من الكافرين، وإن كان مصدقًا، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب. ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس. ألا ترى أن نفرًا من اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء، فأخبرهم. فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره. فلم ينفعهم هذا العلم، وهذا التصديق؟

ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرًا وأمرًا، فإنه يحتاج إلى مقام ثانٍ: وهو تصديقه خبر الله وانقياد لأمر الله؟ فإذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره، والانقياد لأمره. فإذا قال: «وأشهد أن محمدًا رسول الله» تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله. فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار.

فلما كان التصديق لا بد منه في كلا الشهادتين، وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول، ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان، وغفل عن أن الأصل الآخر لا بد منه: وهو الانقياد. وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرًا وباطنًا، ثم يمتنع من الانقياد للأمر؛ إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه وتعالى كإبليس. انتهى باختصار.

وكلما ازداد العبد طاعة لربه ولرسوله ﷺ كمل انقياده. ويبلغ الغاية حين يكون هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، كما قال الشيخ محمد

أمان الجامي في شرحه «شروط لا إله إلا الله» (ص ٩٧): تمام الانقياد أن يكون هواك تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، لا تميل ولا ترغب، ولا تريد أن تعمل إلا بهديه ﷺ. انتهى. وهذا المعنى هو الذي يؤديه الحديث الذي ذكره المصنف في:

**قوله:** (**ومن السُّنة: قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**) قال الإمام النووي عقب هذا الحديث، في «الأربعون»: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب «الحُجَّة» بإسناد صحيح! وصححه أيضًا من المتأخرين العلامة المعلمي، كما في «مجموع آثاره» (٤/ ٩٠)؛ حيث قال: ورد في الحديث الصحيح. . . -فذكره-. انتهى.

والحق في هذا الحديث أنه ضعيف، لما بينه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم» (٢/ ٣٩٤-٣٩٥)؛ حيث قال: تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا من وجوه؛ منها: أنه حديث ينفرد به نعيم بن حماد المروزي. فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن، لصلابته في السُّنة، وتشدده في الرد على أهل الأهواء. وكانوا ينسبونه إلى أنه يهم، ويشبه عليه في بعض الأحاديث، فلما كثُر عثورهم على مناكيره، حكموا عليه بالضعف.

**ومنها:** أنه قد اختلف على نعيم في إسناده، فروي عنه، عن الثقفي، عن هشام. وروي عنه عن الثقفي، حدثنا بعض مشيختنا هشام أو غيره. وعلى هذه الرواية، فيكون شيخ الثقفي غير معروف عينه. وروي عنه، عن الثقفي، حدثنا بعض مشيختنا، حدثنا هشام أو غيره. فعلى هذه

الرواية، فالثقفي رواه عن شيخ مجهول، وشيخه رواه عن غير معين، فتزداد الجهالة في إسناده.

**وأما معنى الحديث:** فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع.

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة، حتى أتى بما ندب إليه منه، كان ذلك فضلًا. وأن يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا، كان ذلك فضلًا. وقد ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**». فلا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله. انتهى باختصار.

وأصرح ما وجدت في القرآن في معنى الحديث الذي ذكره المصنف قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. قال الإمام الشاطبي، في كلامه على هذه الآية، في كتابه «الاعتصام» (١/ ٨٨): وتأملوا هذه الآية؛ فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد أضل منه، وهدى الله هو القرآن،

وما بينته الشريعة.

وبينت الآية أن اتباع الهوى على ضربين؛ أحدهما: أن يكون تابعًا للأمر والنهي، فليس بمذموم ولا صاحبه بضال، كيف وقد قدم الهدى فاستنار به في طريق هواه؟ وهو شأن المؤمن التقي. والآخر: أن يكون هواه هو المقدم بالقصد الأول، كان الأمر والنهي تابعين بالنسبة إليه أو غير تابعين، وهو المذموم. انتهى باختصار.

**فالضرب الأول من اتباع الهوى:** شأن من كان هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

**والضرب الثاني:** شأن الذي لا يكون هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، وقد يصل به اتباعه لهواه حد الكفر، والخروج عن الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

* * *

# الشرط السابع

**ودليل القبول:** قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزخرف]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ [الصافات].

**ومن السُّنة:** ما ثبت في الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**».

---

**قوله: (القبول)** في اللغة ضد الإباء، قال ابن فارس في «المقاييس»، مادة (أبي): يدل على الامتناع. أبيت الشيء، آباه، وقوم أَبِيُّون وأُبَاة.

**والإباء:** أن تعرض على الرجل الشيء فيأبى قبوله، فتقول ما هذا الإباء، بالضم والكسر. انتهى.

ويرد هنا ما سبق من تفسير الانقياد بأنه فيه أيضًا معنى نفي الإباء

والامتناع، وحينئذ فما الفرق بين الانقياد والقبول؟

**فالجواب أن أقول مستعينًا بالله:** إن الانقياد، وإن اتفق مع القبول في أصل معناه من نفي الإباء، إلا أنه يفارقه حيث إنه يستلزم ممن اتصف به الطاعة والعمل. ولذا قال شيخ الإسلام فيما سبق: «وهذا الانقياد والاستسلام هو نوع من الإرادة والعمل».

وأما القبول لكلمة التوحيد فإنه يستلزم ممن اتصف به أن يترك كل ما يناقضها. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات]، فهذه الآية صريحة الدلالة على أن القبول لكلمة التوحيد مستلزم لترك كل ما يعبد من دون الله. وهذا المعنى هو الذي فهمه مشركو العرب من قبولهم لكلمة التوحيد، ولذا أَبَوْا قبولها، وقالوا: ﴿ٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص].

ومن هنا يظهر أن الفرق بين الانقياد وبين القبول؛ أن الأول مستلزم للعمل بما تدل عليه كلمة التوحيد، والثاني مستلزم للترك لما يناقض هذه الكلمة.

ويؤيد بأن ثمة فرقًا بين الانقياد والقبول ما قاله شيخ الإسلام - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -، أثناء كلامه على الآيتين الأخيرتين من البقرة: ثم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فهذا إقرار منهم بركني الإيمان الذي لا يقوم إلا بهما، وهما السمع المتضمن للقبول، لا مجرد سمع الإدراك المشترك بين المؤمنين والكفار، بل سمع الفهم والقبول، والثاني:

الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر، وهذا عكس قول الأمة الغضبية: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]. انتهى من «مجموعة الفتاوى» (١٤/ ١٣٦).

فقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا﴾ متضمن للقبول، كما أن قوله تعالى: ﴿أَطَعْنَا﴾ متضمن للانقياد، وقد عطف الله بينهما بواو العطف التي تقضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. فإذا كان السمع المتضمن للقبول مغايرًا للطاعة المتضمنة للانقياد؛ اقتضى ذلك المغايرة بين القبول والانقياد.

قوله: (ودليل القبول: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾) قال الحافظ ابن كثير في معنى المترفين، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥﴾ [الواقعة]: أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم. انتهى المراد.

فشأن أهل الترف، وطريقهم، وديدنهم، منذ زمن قديم رد ما جاءت به الرسل من الحق، والتوحيد. والسبب في ذلك أن الحق غالبًا يأتي على خلاف ما تهواه النفس، ولذا قال النبي ﷺ: «حُجِبت النار بالشهوات، وحُجِبت الجنة بالمكاره». أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن أهواء النفس عبادتها لله أو لغيره كما تريد هي، أو كما وجدت

عليه الآباء. فإن للنفس في ذلك حظًّا عظيمًا، وإن كانت تتعب في تلك العبادة أكثر مما لو أفردت العبادة لله وحده. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية]، فتستلذ النفس ذلك التعب، وتنشط في عبادة غير الله. وكيف لا؟ فإن وراء ذلك التعب، والنصب، تزيين الشيطان! وقد أقسم بعزة الله على ذلك: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص]، و﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر].

ولهذه اللذة العظيمة، التي يجدها المترفون في عبادتهم لغير الله، لا يخطر ببالهم ترك دينهم الذي ألفوه، وورثوه عن آبائهم. بل يحتجون على شركهم بأن هذه طريقة الآباء، ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، وهذه حجة المشركين دائمًا منذ زمن قديم.

فهذه حجة قوم نوح، حيث قالوا لنبيهم عليه السلام لما جاءهم بالتوحيد: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون]. والقرآن يدل على أن القائلين لهذه المقولة هم المترفون من قومه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]. وهي حجة المترفين، أصحاب الأموال، من قوم شعيب حين دعاهم إلى كلمة التوحيد، فقالوا له عليه السلام: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾ [هود: ٨٧]. وهي حجة أهل الترف من مشركي العرب اتجاه دعوة نبيهم ﷺ إلى كلمة التوحيد، حيث قالوا له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف]. وهذه حجة سائر المترفين، لإباء قبول دعوة أنبيائهم إلى كلمة التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

وهذه الحجة الداحضة هي التي سببت لأبي طالب الهلاك. فبينما هو في سياق الموت، والنبي ﷺ يحثه على الشهادة بكلمة التوحيد، إذ لقنه جلساء السوء هذه الشبهة. فأثرت فيه حتى رد كلمة التوحيد، وأبى أن يقبلها؛ فلم يقلها ومات على ملة الكفر، ملة عبد المطلب. أخرج الشيخان في «صحيحيهما» من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنهما، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك**»، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]، وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].

فهذا أبو طالب مع ما هو معروف عنه من نصرة النبي ﷺ، ونصرة دعوته، لم ينفعه ذلك، ولم يدخله في الإسلام. وذلك لأنه لم يقبل كلمة التوحيد، بل أبى قبولها، ولم يقلها، فمات على الكفر.

وهذا حكم كل من أبى قبول كلمة التوحيد، فدل هذا على أن قبول هذه الكلمة شرط لابد منه لصحة الشهادة بها.

قوله: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ) بهذه الآية يشير المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ- إلى أن نوع الكفر الذي يقع فيه من لم يقبل كلمة التوحيد كفر استكبار وإباء. قال ابن القيم في «المدارج» (١/ ٢٧٥-٢٧٦): وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء. . . وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءً واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل. وهو كفر أبي طالب أيضًا. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر. انتهى باختصار.

وهذه الآية دليل ثانٍ على اشتراط القبول لكلمة التوحيد لصحة الشهادة بها.

وبالمناسبة أحببت أن أذكر مثالًا لسوء عاقبة من يأبى كلمة التوحيد، ولم يقبلها؛ عسى أن يكون في ذلك ردع لمن وسوسته نفسه

بذلك، وعبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ. أخرج ابن أبي عاصم في «السُّنة» ما قال فيه: ثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، ثنا ديلم بن غزوان، ثنا ثابت، عن أنس ﷺ، قال: أرسل رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رأس المشركين يدعوه إلى الله تعالى، فقال المشرك: هذا الذي تدعوني إليه من ذهب، أو فضة، أو نحاس؟ فتعاظم مقالته في صدر رسول رسول الله، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع إليه**»، فرجع إليه بمثل ذلك، وأرسل الله -تبارك وتعالى- صاعقة من السماء فأهلكته ورسول رسول الله ﷺ لا يدري، وقال له النبي ﷺ: «**إن الله قد أهلك صاحبك قبلك**» ونزلت على رسول الله ﷺ آية: ﴿**وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ**﴾. صحح الحديث الإمام مقبل في «جامعه»، كتاب التوحيد، باب جزاء من عاند الدعاة إلى التوحيد.

والأمر كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ، فيما أخرجه مسلم: «والسعيد من وعظ بغيره».

**قوله**: (**عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا**») قال الإمام القرطبي في «المفهم»، في شرح هذا الحديث: ومقصود هذا الحديث ضرب مثل لما جاء به النبي ﷺ من العلم والدين، ولمن جاءهم بذلك، فشبه ما جاء به بالمطر العام الذي يأتي الناس في حال إشرافهم على الهلاك يحييهم، ويغيثهم. ثم شبه السامعين له: بالأرض المختلفة؛ فمنهم: العالم العامل المعلم، فهذا بمنزلة الأرض الطيبة شربت، فانتفعت في نفسها، وأنبتت،

فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم، الحافظ له، المستغرق لزمانه في جمعه ووعيه؛ غير أنه لم يتفرغ للعمل بنوافله، ولا ليتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره كما سمعه، فهذا بمنزلة الأرض الصلبة التي يستقر فيها الماء، فينتفع الناس بذلك الماء، فيشربون ويسقون. . . والطائفة الثالثة التي بلغها الشرع فلم تؤمن، ولم تقبل، وشبهها بالقيعان، السبخة، التي لا تقبل الماء في نفسها وتفسده على غيرها، فلا يكون منها إنبات، ولا يحصل بما حصل فيها نفع. انتهى باختصار.

قوله: («**ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به**») هذا هو الشاهد من الحديث للشرط الأخير من شروط «لا إله إلا الله». فمن لا يقبل كلمة التوحيد التي جاء بها النبي ﷺ، وبعث من أجلها، وقاتل الناس الأباة لها حتى يقبلوها، ويقولوها، فليس بمسلم.

قال ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص ١٧٣)، أثناء كلامه على هذا الحديث: ومن الأرض أرض قيعان، وهي المستوية التي لا تنبت، إما لكونها سبخة أو رمالًا. ولا يستقر فيها الماء، فإذا وقع عليها الماء ذهب ضائعًا، لم تمسكه لشرب الناس، ولم تنبت به كلأً؛ لأنها غير قابلة لحفظ الماء ولا لنبات الكلإ والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء، الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين. بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحي في قلبه فينبت من العمل الصالح، والكلم الطيب، ونفع نفسه وغيره، بحسب قدرته. فمن لم ينبت قلبه شيئًا من الخير ألبتة فهذا من أشقى الأشقياء. انتهى.

## الخاتمة

والحمد لله الذي به تتم الصالحات، وأسأله المولى السميع المجيب الدعوات أن يجعل هذا الشرح خالصًا لوجهه الكريم، وأن لا يجعل فيه نصيبًا لأحد غيره. وإليه مدت يداي، أسأله بكل اسم هو له، سمى به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علمه أحدًا من خلقه، أو استأثر به في علم الغيب عنده، أن يبارك لي في هذا العمل، وأن يجعله في ميزان الحسنات يوم لا ينفع شيء إلا الباقيات الصالحات.

والواجب على كل مسلم أن يعتني بكلمة التوحيد، وشروطها، حفظًا، وفهمًا، وتبليغًا؛ فإن هذا مفتاح الجنة، والسعادة الأبدية بعد السعادة الدنيوية. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وخاضعًا لحكم الله الذي قضاه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، فلا كتاب سوى كتاب الله يسلم من الخطأ والزلل، ولا أحد أرفع من النصح في الدين، فالمرجو ممن قرأ هذا الشرح ووجد فيه ما يحتاج إلى إصلاح، وتصحيح، أن يبلغني ذلك؛ لأقوم بما أوجب الله عليّ من البيان، والإصلاح، والاستغفار. والحمد لله رب العالمين.

**فرغ من كتابته**
**أبو عبد الله**
**رشيد بن مصطفى المغربي البربري**
**مع الظهر يوم الاثنين**
**السادس من شهر ربيع الأول ١٤٣٨هـ**

# الفهرس

تقديم ..... ٣
كلمة شكر ..... ٥
المقدمة ..... ٦
شروط الكلمة الطيبة معروفة في الكتاب و السُّنة ..... ٨
المراد بالشرط ..... ٩
أسماء كلمة الإخلاص ..... ١٠
الشرط الأول: العلم ..... ١٢
تعريف العلم ..... ١٢
العلم بالله أشرف العلوم إذ شرف العلم بحسب شرف المعلوم ..... ١٤
الأمر بتعليم التوحيد يشمل سائر المكلفين ..... ١٤
الدليل على أن الجهل بالله يؤدي إلى الشرك ..... ١٤
الشهادة لا تكون صحيحة إلا مع العلم بالمشهود به ..... ١٥
معنى «لا إله إلا الله» ..... ١٧
سبب زيادة «بحق» في معنى هذه الكلمة ..... ١٧
مقتضى هذه الكلمة: الكفر بعبادة غير الله ..... ١٨
جعل البعض هذا المقتضى شرطًا ثامنًا لهذه الكلمة ..... ١٨
ركنا هذه الكلمة ..... ١٩
مجرد العلم بمعنى «لا إله إلا الله» لا يكفي ..... ٢٠
معنى هذه الكلمة عند بعض الفرق الضالة ..... ٢٠

مجرد نطق اللسان بـ«لا إله إلا الله» لا يكفي ..... ٢٣
السُّنة والقرآن في مرتبة واحدة عند الاستدلال ..... ٢٤
نجاة قائل كلمة التوحيد عند الموت ..... ٢٤
**الشرط الثاني:** اليقين ..... ٢٨
تعريف اليقين ..... ٢٨
حصر الإيمان بالله بمن لا يرتاب ..... ٣١
أحوال الناس عند المحن وعدمها ..... ٣٢
من أدلة اليقين الثبات عند المحن ..... ٣٤
من أسباب الحصول على اليقين العمل ..... ٣٧
بيان أن اليقين وحده لا يكفي ..... ٣٨
**الشرط الثالث:** الإخلاص ..... ٤٠
تعريف الإخلاص ..... ٤٠
بيان هذا التعريف ..... ٤١
الإخلاص حقيقة الإسلام ..... ٤١
الإخلاص شرط لقبول الأعمال ..... ٤٣
حقيقة الإخلاص: الحنيفية ..... ٤٣
الإخلاص سبب لنيل شفاعة الرسول ﷺ ..... ٤٧
الشفاعة لغةً وشرعًا ..... ٤٨
بيان معنى: «**إن الله حرم على النار**» ..... ٤٨
بقدر إخلاص العبد تكون نجاته من النار ..... ٤٩

الأمور التي يحصل بها العبد الإخلاص..... ٥٠
ثلاث آفات تعرض للعامل وتجعله غير مخلص في عمله لله، وعلاج ذلك..... ٥٢
أعظم موقف يخلص فيه العبد شهادته بكلمة التوحيد..... ٥٤
الكلام على حديث: «من قال لا إله إلا الله فتق الله لها السماء فتقًا» ..... ٥٥
كلمة الإخلاص تصعد إلى الله بما يصدقها من العمل..... ٥٧
الشرط الرابع: الصدق وتعريفه ..... ٥٩
أصل الصدق الصلابة في الدين..... ٦١
استمرار البلاء بالمؤمن ..... ٦٣
علم الله بالصادق من عباده ..... ٦٤
الإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب..... ٦٥
الكلام على لفظة «صادقًا» في حديث معاذ رضي الله عنه ..... ٦٩
الصادق مفتقر إلى معرفة سُنَّة النبي ﷺ..... ٧٠
الصدق مخلص لقلب صاحبه من محبة غير الله..... ٧١
الشرط الخامس: المحبة..... ٧٣
بيان شرط المحبة لصحة الشهادة بكلمة التوحيد ..... ٧٧
الشرك الذي وقع فيه المشركون شرك في المحبة..... ٧٨
بيان أن جحد محبة العبد لربه إنكار لتوحيد الألوهية..... ٧٩
تأكيد اشتراط المحبة لصحة التوحيد ..... ٨٠
تأويل الجهمية والأشاعرة لنصوص المحبة ..... ٨١

رد التأويلات المذكورة ..... ٨٢
من علامات المحبين لربهم المحبوبين عنده..... ٨٩
إشكال وجوابه..... ٩٠
أصل عظيم من الدين قد تركه كثير من المسلمين ..... ٩٣
معنى حلاوة الإيمان ..... ٩٥
محبة الله الخالصة والعامة..... ٩٨
محبة الرسول ﷺ على درجتين ..... ١٠٠
الشرط السادس: الانقياد ..... ١٠٥
من علامة الانقياد ترك الكبر ..... ١٠٦
الكلام على رواية ابن أبي المغيرة عن ابن جرير ..... ١٠٨
الانقياد أصل في الشهادة بكلمة التوحيد ..... ١١١
الكلام على حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»..... ١١٣
الشرط السابع: القبول ..... ١١٦
بيان أن عدم قبول كلمة التوحيد كفر واستكبار وإباء ..... ١٢١
الخاتمة ..... ١٢٤
الفهرس ..... ١٢٥